عزيز نيسين

لا تنس تكّة السّروال

وقصص أُخرى



ترجمة: د. هاشم حمادي





الاشتراكية السروال

دار الحصاد للنشر والتوزيع
دمشق ص. ب: ٤٤٩٠
هاتف: ٢٤٦٣٢٦

سورية

طبعة أولى ١٩٩٢

تنضيد وإخراج
مكتب الفيحاء ـ دمشق

عزيز نيسين

لا تنس تكّة السّروال

ترجمة
د. هاشم حمادي

الفهرس

بداية ٥
سامحوني يا أصدقائي ١٣
لا تنس تكة السروال ١٥
سوف أنظم حياتي ٢١
خيال المآتى ٢٣
عامل رخيص ٢٦
المرايا (المعجزة) ٢٩
مجنون بالاكراه ٣٧
مأدبة بمناسبة تركيب المرجل ٤٨
ثريا ذات خمسة قرون ٥٦
ليلة الرعب ٧١
حديث في المقهى ٨١
بانتظار التحفة ٩٠
تعليمات للشوائين على قارعة الطريق ١٠٣
سو هادا؟ ١٣٦

- ١ -

منذ خمسة عشر عاماً جئت بأبيالي[1] أحمل قصائدي بيدي، لكنني غادرت في الأصفاد. وبضمير مرتاح أستطيع القول أنني عشت بشرف ثماني سنوات من الحياة كاتباً، وأربع سنوات من الحياة سجيناً. لقد أصبحت ريشتي العوجاء موضع حقد مسعور للحكام والديكتاتوريين والأتباع والأذيال.

إنني أتلفت إلى ما تم إنجازه. لقد أصابني ما أصاب الولد المشاكس، الذي دس إصبعه، وهو يلعب، في عش الزنابير، حيث كانت كل بيضة من بيوضه، كما حبات الخرز، تتلون بكل ألوان قوس قزح، تحت أشعة شمس الصيف الساطعة. لقد كان كل ذنبي أنني أثرت حنق الزنابير، التي تطلق على نفسها اسم النحل. اسمعوا هذه الحكاية.

---

(١) اسم شارع في اسطمبول حيث تقع كبريات الصحف والمجلات.

يحكى أن مريضاً جاء إلى طبيب الأمراض العصبية. وقال له:

ـ دكتور، إنني مريض، وقد فقدت الحياة طعمها بالنسبة لي. فحين أتذكر الجائعين أفقد شهيتي. وحين أتذكر العراة أبرد وإياهم. إنني أتهم نفسي بارتكاب كل الجرائم. إن يدي تذكران برودة قبضة المدية المجرمة، وكل رصاصة، تنطلق من البندقية، تخترق قلبي. كل جرائم مجتمعنا أثقلت كاهلي بعبئها. لم أعد أضحك.

فما كان من الطبيب إلا أن أخذ المريض من كتفيه، وقربه من النافذة، وأزاح الستارة، وأشار إلى الاعلان، المعلق في الشارع، والذي يمثل أحد مهرجي السيرك.

ـ هل ترى هذا المهرج يا عزيزي؟ نصيحتي إليك أن تذهب إلى حفلاته مساء، ولسوف تتخلص من كل سأمك وكربك. وتبدأ بالضحك، وتشعر بطعم الحياة من جديد.

ويجيب المريض، وقد أطرق برأسه:

ـ لكنني يا دكتور أنا المهرج نفسه.

إن بالامكان تشبيه حياتي الأدبية، ذات الثمانية أعوام، بحياة هذا المهرج.

القراء الأعزاء: إن كل ما بقي لدي، بعد الكفاح المرير، عدة ضحكات قصيرة، اعتصرت عبر الدموع.

١١ كانون الثاني ١٩٥٣

ـ ٢ ـ

إذا ما فتحت على الصفحة الثانية من جريدة «جمهورية»، تاريخ **٢٥** كانون الثاني ـ يناير ـ **١٩٥٣**، فلسوف تعثر في العمودين، الخامس

والسادس، على إعلان قصير، داخل إطار. تحت عنوان «لقد تخليت عن الانتحار». بهذا الاعلان ترتبط أحداث مفجعة في حياتي، لدرجة أن قلبي لايزال حتى اليوم ينفطر، وأنا أتذكرها. واليكم ما حدث.

لقد نفيت من نيفشيهير، حيث أمضيت ستة عشر شهراً من عقوبة الحبس. وقد وصلت اسطمبول برفقة شرطي، وهناك كان على البقاء ستة عشر شهراً أخرى تحت رقابة الشرطة.

لم يسمحوا لي بالعمل في أية صحيفة أو مجلة. ولم تقبل قصصي في أي مكان. كما كان محظوراً علي إصدار مجلتي الخاصة بي. ولدي ولدان. هل تتصورون حالتي؟

قررت تجميع كتيب خاص، لكي أعيش بشكل ما. انتقيت أربع عشرة قصة من قصصي، التي سبق ونشرتها في جريدة «ماركو باشا»، وغيرها من الجرائد الفكاهية، التي كانت تتمة لها. فكان ما يشبه الكتيب من ثمان وأربعين صفحة. لكن لم يرض أي ناشر أن ينشره. أما أنا نفسي فلم يكن بمقدوري نشره بسبب الفقر.

أخيراً استدنت الورق من أحد معارفي، وهو عتال، كان يتكسب من تجارة الورق في بابيالي. وتمكنت من طباعة كتابي في إحدى المطابع. بالدين أيضاً. ولما لم يكن بالامكان دفع تكاليف الفنان، فقد صممت غلاف الكتاب بنفسي. كان غلافاً من لونين، على ورق رخيص وكريه.

تلكم كانت مجموعتي القصصية الأولى. وكنت قد نشرت كتيباً قبل ذلك. كان عنوان كتابي «كل ما تبقى». بعد ثماني سنوات من حياة العذاب في الصحافة وبعد صراع مرير مع المتحكمين بالسلطة بالكاد استطعت شخبطة أربع عشرة قصة قصيرة.

«كل ما تبقى»
قصص ساخرة قصيرة
الطبعة الأولى
الثمن ٥٠ قرشاً.

والآن لم يبق إلا العثور على تاجر كتب لبيعه إياه. حملت الاعلان إلى ثلاث جرائد. لكنه لم ينشر في أي مكان، ففيه يذكر اسم شخص غير مرغوب فيه.

قصدت قسم الاعلان في جريدة «جمهورية»، وسألت عن السبب، لكن رئيس القسم لم يتفضل بإيضاح السبب لي. وحينذاك عرضت عليه أن يقرأ كتابي أولاً. وقلت له: «إذا كنتم تنشرون الاعلانات عن البارات والكازينوهات وأماكن اللهو، ذات المشروبات الكحولية والمغنيات، فلماذا إذن لا يجوز نشر إعلان عن كتابي؟». لكن رئيس القسم ظل متشبثاً برأيه، دون أن يفصح لي شيئاً.

وفي اليوم التالي توجهت بطلبي شخصياً إلى جواد فهمي باشكوت، رئيس تحرير «جمهورية»، فكان رده أنه لا يتدخل في مثل هذه الأمور.

وكذلك الجرائد الأخرى لم تنشر الاعلان، الوارد فيه اسمي. ولا سبيل إلى بيع الكتاب بدون إعلان. ولم يكن لدي ما أعيش به، فما بالك بتسديد الديون. وهنا قررت أن أنشر الاعلان بدون ذكر اسمي، وأن أبتكر شيئاً ما جذاباً، مما يمكن أن يلفت انتباه القارىء إلى الكتاب. وقد جهزت عدة صيغ، هاكم إحداها:

بشرى سارة! لقد تم العثور على دواء،
يمنع تساقط الشعر. فبعد قراءة
كتاب «كل ما تبقى» سيبدأ الشعر
ينمو حتى لدى الصلعان.

وبهذا النفس كتبت الصيغ الأخرى. وبعد أن اخترت إحداها، توجهت إلى «جمهورية».

نشر الاعلان في ٢٥ كانون الثاني - يناير - ١٩٥٣، وكان يوم عطلة، على الصفحة الثانية من جريدة «جمهورية». أورده لكم بكامله:

لقد تخليت عن الانتحار.

في صباح أحد الأيام، وحين خروجي من المنزل، اروم الانتحار، ناولني رفيقي كتاباً. وبعد أن قرأته، قررت أن أستمر في الحياة. نصيحة لكل من يتملكه الضجر واليأس، أن يقرأ كتاب القصص الساخرة - «كل ما تبقى». من صميم قلبي أشكر مؤلفه، معده، ناشره وموزعه.

«كل ما تبقى»

كانت رغبة المؤلف أن يبقى اسمه مجهولاً.

الثلاثاء سيطرح للبيع.

مكان البيع: شارع أنقرة ٥٩.

نشر هذا الاعلان في مكان لائق: بين الاعلان عن رواية صحفية

«لانـدريو قاتـل النسـاء»، والاعـلان عن فيلم «سقـوط فتاة». تليها إعلانات أماكن اللهو والبارات والريفيو.

لم يول القارىء أي اهتمام للاعلان، الذي علقت عليه الكثير من الآمـال، ولم يجد كتابي الأول من يشتريه. ولكي أسدد ديني للمطبعة استـدنت من مكـان آخر. وبقيت مديناً لبائع الورق. الذي قرر أن يعوض نفسه عن الخسارة بربح زائد: فقد طالب بأن أعيد له كتبي بسعر الـورق. ومن ثم وزعهـا على أصحاب الأكشاك والبسطات بالسعر، الذي يناسبه.

لفترة طويلة ظل كتيبي الأول قابعاً على الرفوف والأرصفة، بين الغبار والطين. وقد بقي عندي ثلاث نسخ منه.

فينيرويلو ٨/٩/ ـ مايس ـ ١٩٧٤

ـ ٣ ـ

يؤكد المؤرخون أن كل قرن يقسم إلى ثلاث مراحل، من حيث عدد الأجيال: الأجـداد، الآباء والأحفاد. فبعد كل ثلاثين عاماً يأتي جيل جديد.

لا شك أنكم تذكرون جريدة «ماركو باشا»، الهزلية، التي كانت تصدر في وقت من الأوقات. كان ذلك في عام ١٩٤٦. ثلاثون عاماً انصرمت منذ ذلك الحين، أي أن جيلاً بكامله قد نما وترعرع.

كانت جريدة «ماركو باشا» ظاهرة هامة جداً في تاريخ الصحافة التركية والقصة الهزلية التركية والحياة السياسية التركية. وسوف أحاول عرض هذه الفكرة بإيجاز من خلال الأمثلة.

في عام ١٩٤٦ كانت جريدة «جمهورية»، إحدى أوسع الجرائد انتشاراً، توزع ثلاثين ألف نسخة يومياً. وكان يوم الانتخابات هو اليوم الوحيد، الذي كانت توزع فيه أربعين ألفاً، أما جريدة «فاتان» فكانت توزع خمسين ألف نسخة. بينما كانت جريدة «ماركو باشا» تصدر باستمرار بستين ألف نسخة. وكانت كل أعدادها تنفد، على الرغم من الضغط القاسي، السري والعلني، عليها من جانب الفوقية الحاكمة والعسكرية، وقادة الأحزاب البرجوازية، والسياسية والسلطات المحلية ـ أي كل الحثالة الرجعية، التي كانت موجودة آنذاك.

وبسبب كل هذه الملاحقات كانت جريدتنا لا تكف عن التوقف، لدرجة أننا اضطررنا ست مرات لتغيير اسمها، لكي ندخل وندخل إلى حلبة الصراع السياسي: «ماركو باشا» «معلوم باشا» «علي بابا» «يديسيكيز حسن باشا» «بيزيم باشا» و«ميديت».

وبسبب كتاباتهم المنشورة في الجريدة حكم بالسجن على رئيس تحرير جريدة «ماركو باشا»، الكاتب والفنان صباح الدين علي، والمحرر ـ الكاتب عزيز نسين، ورسام الكاريكاتور مصطفى ويكوسوز، والشاعر رفعت يلماظ، وألقي بهم وراء القضبان. ومن ثم قتل صباح الدين علي، مفخرة الأدب التركي.

ومن البدهي أن جريدة «ماركو باشا»، وكل صيغها الأخرى، أثارت فكر البلاد الاجتماعي، لكن الجريدة لم تستطع أن تعمر طويلاً. فقد كان ربع إصدارها يسحب من البيع، بقرار خاص من الحكومة.

ولا ريب أن الجيل، الآتي بعدنا، سوف يرغب في معرفة ما كان يكتب، لثلاثين عاماً خلت، في جريدة أصيبت بكل هذه الأرزاء. لقد

قلبت صفحات مجلدات «ماركو باشا» وبدائلها، واخترت من قصصي القصيرة ما أقدمه للقراء المعاصرين. وانه ليطيب لي أن أقلد هذه الطاقة الساخرة للشبيبة التي أحب ـ لأبناء الجيل الجديد.

عزيز نيسن

٦ ـ آب ـ اغسطس ـ ١٩٧٥

سامحوني يا أصدقائي:

صدر العــدد الأول من جريدة «مـاركـو باشـا»، التي أصدرتها بالتعاون مع صباح الدين علي، في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٦. وهاكم قصتي الساخرة الأولى في هذه الجريدة.

كل شيء في الحياة كان: الفرح والترح. أيها الأصدقاء إذا كنت قد أغضبت أحدكم، عن غير قصد، فسامحوني بسخاء.

جيراني الأعزاء، لقد صدف أن تخاصمت معكم، فسامحوني، إن كنت قد أخطأت في شيء.

والدي الحبيب! دعنا ننسى كل الزعل! لا تذكر بالشر ولدك.

أولادي الأعزاء! دعوني أقبلكم! فمن يدري، ربما لن تروا أباكم بعد الآن. فهو سيسير في الدرب، الذي لا يعود منه الجميع.

وأنت يا صديقة حياتي! كلنا مذنبون. فسامحيني.

تسألون أي الجهات أقصد؟ يا ساتر! سفرة بعيدة؟ ما حاجتي إلى ذلك؟ إلى الحرب؟ - ولا بأي ثمن! تعتقدون أنني أشعر بدنو ساعتي؟

ليس ثمة ما يشير إلى ذلك.

هل أنا بصدد الانتحار؟ معاذ الله. طيب ما الأمر إذن؟ ـ سأقول لكم.

تصدر عندنا جريدة، اسمها «ماركو باشا». ويطلبون مني أن أكتب في هذه الجريدة نكتة. ولسوف أكتب. كل اتكالي على الله وعلى قانون المطبوعات. كيف سينتهي هذا ـ لست أدري. سوف أجازف بكل ما لدي، فمن كان لديه قنينة خمر، يشربها. ومن كان في جيبه قلم ـ يكتب به.

أيها الأصدقاء ـ الجيران ـ الأولاد والأهل؟ إذا كان ثمة شيء ما ليس على مايرام، فلا تؤاخذوني. إنني أبدأ كتابة قصتي، فليقو قانون المطبوعات من عزيمتي.

٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٦

لا تنس تكة السروال

يبدأ ذلك صباحاً، وأنا أستعد للذهاب إلى العمل.

منذ ثلاثة أيام نقول لك، وأنت تنسى. لا توجد في البيت قطعة جبن.

منذ ثلاثة أيام يقولون لي! لكن أين المال؟

- طيب هل اشتريت الجبن؟ - يسألونني في المساء.

وكما الممثل التراجيدي، أضرب، بكل ما أوتيت من قوة بيدي على جبيني، وأصرخ:

- أو - وا لقد نسيت تماماً.

على هذا النحو تكيفت. في الصباح يوصونني على شيء، فأرد: سأشتريه، وعند المساء أعود، ويتكرر الدور - أو - ولقد نسيت تماماً.

لكن والدي كشفني. فحين هممت، في المرة الثالثة، أن أرد على السؤال التقليدي: «أين الجبن»؟ بأن أرفع يدي إلى جبيني، صرخ والدي، بدلاً عني: «أو - و»، ثم وجه كلامه لأفراد الأسرة:

- لقد نسي.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد لي الحق في النسيان. وفي الصباح التالي، وبينما كنت أحلق ذقني، قالوا لي من جديد:

ـ لا تنس أن تشتري الجبن.

ـ طيب.

كنت أرتدي الحذاء حين تردد:

ـ ولم يبق صابون أيضاً، فاشتر.

ـ ماشي.

وبينما كنت أهبط درجات السلم تناهى إلى سمعي:

ـ وليس عندنا سكر، فلا تنس.

ـ طيب، طيب.

أمسكت بقبضة باب الخروج. ومن فوق جاءت صرخة بأعلى صوت:

ـ هل تسمع؟ القهوة! القهوة.

ـ ماذا حدث للقهوة؟

خلصت، اشتر.

ـ سوف أقوم بكل شيء.

أغلقت البـاب، وتنفست الصعداء، لكنني لم أكد أضع قدمي على الرصيف، حتى سمعت نقراً على النافذة.

ـ ماذا هناك أيضاً؟

ـ مهلاً، إلى أين أنت مندفع؟ أرجع، وخذ الوعاء. اشتر زيت زيتون.

ـ سأشتري. سأشتري ـ ي ـ ي.

أخطو عدة خطوات، ومن جديد يأتي الصراخ من النافذة.

ـ هيه. لم يبق في البيت حبة رز. أجلبه مساء.
ـ سأجلبه.

في كل صباح حفلة وداع من هذا النوع.

لكن هذا ليس كل شيء. فمن الأبواب والشبابيك، المشرعة، تطاردني، عبر الشارع كله، أصوات مطالبة وقلقة، خشنة ورنانة، خفيفة ومبحوحة: هي ـ هيه!

اللعنة. كل الحارات المجاورة تستنفر. الناس يندفعون من الأبواب، يطلون من النوافذ.

ـ ماذا يجري هناك؟
ـ لا تنس أن تشتري تكة للسروال ولتكن من نوع جيد، لا تنس.
ـ وبلورة للمصباح.
ـ وفتيلة للطباخ.

إن هروبي المذعور يشبه هرب بائع البسطة، وهو يرى ممثل السلطة، لكنني لا أكاد أختفي خلف الناصية حتى يلحق بي الصبي.

ـ لقد طلبت الخالة...
ـ ماذا طلبت؟
ـ لم يبق بصل أيضاً.
ـ قل لها أن تعد كل ما تبقى، ولسوف أجلب الباقي.

على هذا النحو أذهب إلى العمل في الصباح. هل فهمتم بماذا يمتلىء رأسي؟ فحتى المساء يسبح فيه الجبن والزيت والبصل وتكة السروال...

واليوم، حين دخلت المكتب صباحاً، كان رأسي، كما هي

العادة، طافحاً بمختلف أنواع السلع البقالية والخردواتية.

كان علي أن أكتب وثائق عاجلة، كانت ترقد على طاولتي منذ يوم البارحة. وقد كتبتها، وأرسلتها إلى الجهات المعنية.

ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى دخل المدير غرفتي. كان وجهه ينضح بالعرق، وخيشوماه ينتفخان. وقال، وهو يمد لي أوراقي.

ـ ما هذا؟

ـ أوراق. . .

ـ إقرأ!.

أخذت الأوراق منه، ورحت أقرأ بعيني

ـ إقرأ بصوت عال!

كل من كان في الغرفة: ضاربات الآلة الكاتبة، السكرتيرات، الموظفون، الذين جاءوا إلى هنا بعمل ـ تحول إلى آذان صاغية. بدأت أقرأ:

«الإدارة العامة. المسؤول الكبير. جواباً على الأمر رقم وتاريخ. فيما يلي الإجراءات المحددة، التي اتخذت بصدد تلك البنود، التي كانت تتطلب الدراسة العاجلة، وقد درست بكل دقة. نعلمكم أننا نرى أنه من الضروري:

رفض الجبن الفلاحي لأننا نعتبر أن ثمنه باهظ جداً.

تكة السوال تباع لدى تجار الكشة في منطقة محمود باشا.

مئتان وخمسون غراماً من لحم البقر للكوستيليتا، يطلب عند الشراء تقطيعها إلى نصفين.

عند شراء بلورة المصباح لا بد من تجربتها، وعدم أخذ بلورة

مكسورة، كما في المرة الماضية.

لما كنت أسعار الصابون عالية تستخدم رغوة الصابون حتى النهاية، وعدم هدرها.

بغية توفير القهوة تستخدم مرة ثانية مع إضافة ثمالة القهوة.

نرسل هذه الوثيقة إليكم كتقرير عام لاتخاذ التدابير المحددة...».

ـ ما معنى هذا؟ ـ زأر المدير من جديد. أدركت أنني أتلفت وثيقة رسمية، إذ دلقت عليها كل ما يحويه رأسي المسكين.

ترددت في الغرفة قهقهة ودية.

وتابع المدير: ـ كيف وصلت إلى هذا الدرك؟

ـ أنا نفسي لا أعرف.

ـ طيب، لقد أصابك الطيش. لكن لماذا وقع رئيسك على هذا؟

ـ فضيحة.

ـ لنفرض أن رئيسك لم ينتبه. فكيف أرسل رئيس الديوان ذلك إلى جهة أخرى؟

ـ هذا شيء لا يطاق.

ـ طيب، ولنفرض أن الرئيس كان شارداً. لكن أين كان نائب المدير؟

ـ شيء مخجل، ومعيب.

وقال المدير، بعد أن فكر ملياً:

ـ لم ينتبهوا. هذا واضح. لكن أنا. كيف أرسلت أنا هذه البهدلة إلى المدير العام؟

ـ إن هذا لـ

ـ ماذا!!؟

ـ شيء رائع .
ـ وماذا سيكون إذا ما عمد المدير العام إلى إرسالها إلى الوزير، دون أن يقرأها؟

وهنا صاح الجميع بصوت واحد .

ـ في هذه الحالة إقرأ علينا الفاتحة .
ـ الحمد لله أن كل شيء مر على خير. فقد خلط المدير العام، بسبب شروده، بين المغلفين. وأرسل الوثائق، ليس إلى الوزير، بل إلى إحدى السيدات .
ـ أوخ! . .
ـ وبسبب الشرود أرسل لي عمال البريد المغلف، المرسل إلى هذه السيدة، أما ذلك، المرسل إلى الوزير، فلا أحد يعرف إلى أين وصل .

وهنا تنفسنا جميعاً الصعداء .

شكراً للشاردين! صحيح أنه بسببهم تظهر مثل هذه الاعلانات في الجرائد :

«بهدف الحد من الهدر يسرح من المؤسسة الفلانية اثنان وعشرون موظفاً. ويوظف مكانهم ثلاثمئة مسؤول». لا تستغربوا .

١٩٤٧

لسوف أنظم حياتي

خلاص! من الآن فصاعداً سوف أنظم حياتي الكثيرة الضوضاء، سأضع كتبي، الخفيفة المشاكسة، في صف واحد. فأنا أرثي لرجال الشرطة. يأتون للتفتيش، فيدلقون محتوى الحقائب العتيقة والأكياس والصناديق. جرب أن تعثر على شيء بين سقط المتاع هذا. أما الآن فقد رتبت كل كتبي ومقالاتي وزواياي. كلها موضوعة على الرفوف بترتيب تام. واقتنيت قوائم وبطاقات وتعليقات. إن التفتيش يجري عندي كل أسبوع. والآن بوسع رجال الشرطة، بكل هدوء، أن يأخذوا من عندي أي كتاب يعجبهم، وأية مقالة يريدون.

وضعت برنامجاً للاسبوع.

يوم الاثنين ـ الاستنطاق. أرجو من المدعي العام في اسطمبول لشؤون النشر أن يستدعيني للاستنطاق في الوقت المذكور فقط. لا حيلة لك في ذلك، إنه النظام.

يوم الثلاثاء، الذهاب إلى القسم للادلاء بالافادات. أستطيع استقبال الراغبين عندي.

يوم الأربعاء ـ تفتيش البيت. كل الرجاء من رجال الشرطة أن يقابلوني فقط في الوقت المخصص لذلك في البرنامج.

الخميس والجمعة ـ جلسات قضائية.

أما بقية أيام الأسبوع فتخصص لاصدار الجريدة.

يجب الاستمـرار، ولا يجوز ترك هذا الجمهـور من الناس ـ الشرطة، المحققين، المدعين العامين، القضاة ـ عاطلين عن العمل.

ليس لدي رغبـة كبـيرة في التفكـير بالمـوت، لكنني أعتقد أنهم سيقولون عني، بعد موتي: «كان إنساناً موهوباً، يتقن استخدام ريشته. ولـولا كل هذه الاستدعاءات، التفتيشات، الاستنطاقات والجلسات إذن لكان يمكن أن يصبح كاتباً حتى».

١١ تشرين الثاني ١٩٤٨

خيال المآتى

ذات مرة، وكـان يوم أحـد، قررت أن أتنـزه. وبعد أن تركت للمـوسرين أن يسرحوا، ويمرحوا في أماكن الاستجمام الفاخرة، مثل آدا، مودا وغيرهما، مشيت متثاقلاً إلى خارج المدينة، من بوابة توبكابا، مباشرة، عبر الأحياء الفقيرة. ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى وجدت نفسي بين البساتين.

فجأة سمعت صوتاً من خلفي:

ـ اسمع.

التفت ـ لا أحد، غير خيال المآتى، يقف، تحركه الريح. وبدلاً من القبعة كانت على رأسه قعادة، مثقبة، ومتقشرة. وبدلاً من الثياب ـ أسمال ممزقة على عصا. وتقهقرت من شدة الفزع، لكنه بدأ الكلام:

ـ لا تخف يا بني.

ومن شدة الخوف راحت يداي وقدماي ترتجف، وتمتمت:

ـ مرحباً يا سيد خيال المآتى.

ـ طيب كيف أحوال أهلنا هناك؟

ـ وهل لديك أهل؟

وخشخش خيال المآتى قليلاً بهيكله ـ قصبة لدعم الفاصولياء ـ وخيل إلي أنه يقهقه.

ـ لدي بالطبع : كيف لا .

ـ غريب . . . فأنا لست بالشاب على ما أعتقد . .

ـ إذن وأنت أيضاً لا تعرف أن أغلب أسياد العالم يتحدرون من صلب خيال المآتى؟

ـ الحقيقة لم أكن أعرف.

ـ مهلاً، لولا وجودنا نحن لما كان هناك تاريخ! فكم أنجبنا من ملوك وباديشاهات ورؤساء وزارة ووزراء.

ـ من مثلاً؟

ـ هذا سر. يمكن أن أسمي البعض والبعض الآخر ـ لم يؤن الأوان.

ـ إذن فأقرباؤك هم عظماء الناس. فلماذا أرسلوك إلى هنا إذن؟

ـ في وقت من الأوقات كان لدي كرسي، سيارة، والمتزلفون.

ـ وماذا حدث؟

ـ لا شيء، كل مل في الأمر أنني نسيت أنني خيال المآتى، ورحت أتدخل في الأمور الاقتصادية.

ـ في أية أمور؟

ـ هاك اسمع. أردت ذات مرة تخفيض أسعار السكر واللحم، وإدخال نظام الضمان الاجتماعي للعمال، وإزالة البطالة، وتخفيض الضرائب. وبدأت أتحذلق وأضع المشاريع.

ـ والنتيجة؟

ـ لم يرضِ معلمي ذلك، فرمى بي إلى هنا. وقد صدق علي المثل القائل: «إذا كان الكلام من فضة فالصمت من ذهب».
ـ واه، واه.
ـ وهكذا يحصل: لا تأخذ بخناق الآخرين، بل اجلس، وتابع التدخين.
ـ هم ـ م . . .
ـ لكنني لا أفقد الأمل. فكل شيء لايزال أمامي.
ـ لا أفهم تماماً. . .
ـ وما الذي لا يفهم؟ يا لك من عبيط. إننا نحن معشر خيال المآتى، نستطيع أن نبقى سنوات بعيداً عن الصدارة. لكن فجأة يتغير كل شيء. فقد يخطىء أحد خيالات المآتى، الموجود في السلطة، ويتحدث عن العمل، وحينذاك يعزلونه، ويأخذون واحداً منا، فيتربع في مكانه الذي يستحقه من زمان ـ وهنا سعل خيال المآتى سعلة لها مغزى، لكأنه قد شغل كرسياً هاماً بالفعل ـ وحينذاك سيكون الحديث من نوع آخر. ربما تريد أنت أن تصبح إنساناً كبيراً؟ ـ سأل فجأة.
ـ وكيف لا أريد؟
ـ قف إلى جانبي إذن، وستكون من جماعتنا.

وهذا ما فعلته. فقد قلبت سترتي، وارتديتها والبطانة من الخارج، ومددت ذراعي، ووقفت كما خيال المآتى، بانتظار دوري.
احذروا: فلن ألبث أن أجيئكم رئيساً على حين غرة.

١٩ تشرين الثاني ١٩٤٨

عامل رخيص

في الصبـاح الباكر كان صاحب أحد المعامل الكبرى جالساً في مكتبه، يشرب قهوة الصباح. وفجأة ينفتح الباب بصرير، ويندفع إلى الغرفة شخص غريب، ذو مظهر يثير الشفقة.

وقال مخاطباً صاحب المعمل، وهو يفرك قبعته في يديه، كما يفعل عادة العاطلون عن العمل، الراغبون في تأجير أنفسهم:

ـ إنني أبحث عن عمل يا أفندي.

وراح البترون يتأمله، دون أن يرفع رأسه.

ـ ما العمل الذي تجيد؟

ـ لقد درست في المعهد الحرفي، إنني براد من الدرجة الأولى.

ـ نحن نحتاج إلى خراط.

ـ لقد اشتغلت خراطاً خمس سنوات في أحد المصانع في ألمانيا. ولدي شهادات.

انتعش البترون قليلاً.

ـ لكننا نحتاج أكثر ما نحتاج إلى مصمم قوالب.

ـ إنني مصمم قوالب من الدرجة الأولى .

تلمظ البترون بلذة .

ـ لو كنت نجاراً أيضاً .

ـ لقد عملت أربع سنوات كاملة معلماً في النجارة .

«إنه لقية للمعمل! ـ يفكر البترون بسرور ـ لا بد أنه سيطلب الآن مبلغاً كبيراً» .

ـ حسن يا بني ، لكننا لسنا بحاجة إلى قوة عاملة .

ـ لسوف أقوم بكل ما تأمر به .

ـ طيب ، سوف آخذك . لكن ، ليكن في علمك أنني حاسم في قراري . لن أدفع زيادة . فأنت على كل حال زائد بالنسبة لي .

ـ تشكراتي يا أفندي ، فأنا لن أطلب الكثير. المبلغ الذي تدفعه ، وشكراً عليه .

ـ إننا ندفع لمعلمي الدرجة الأولى خمس ليرات في اليوم ، أما أنت فسوف ندفع لك ، باعتبارك زائداً . . . ليرتين . . .

ـ طيب يا سيدي أنا موافق .

ويضيف البترون ، وقد سر من نجاحه ، بوجه عابس :

ـ وشيء آخر: إن يوم العمل عندنا غير منظم . لكي لا تتذمر فيما بعد ، وإلا فقد تشفق على أحدهم ، لكنه يسيء إليك مقابل ذلك . إحدى عشرة ساعة عمل في اليوم كحد أدنى .

ـ ولتكن أربع عشرة كاملة يا سيدي ! وهل ستجف يداي ؟ ويكاد البترون لا يصدق أذنيه .

ـ اصغ ولا تقل أنك لم تسمع : سوف يكون مكان العمل ضيقاً ومعتماً .

ـ أنا راض به كيفما كان.

ـ كدت أنسى. لن تحصل على النقود مقدماً. ستعمل حوالي الشهر، وتكتسب الخبرة، وإذا ما رضينا عن عملك فليكن، سنبدأ دفع ليرتين في اليوم.

ـ كما تريدون.

ـ وشيء آخر أيضاً. سوف تدفع عشرين بالمئة من الأجرة لقاء استهلاك الآلات ونفايات المواد الخام.

ـ كيف لا يا سيدي، من كل بد.

ـ وأيضاً...

ـ حاضر!

ـ إنني أئتمنك، وأنت الإنسان الغريب، على آلات ممتازة.

ـ تأتمني يا أفندي.

ـ هذا يتطلب كفالة. ستدفع ألف ليرة.

ـ سأفعل ذلك يا سيدي، أقسم لك. لقد ورثت عن أبي كوخاً. ولسوف أرهنه، وأدفع.

ـ إذن أمش إلى الورشة، وابدأ العمل.

بعد دقيقة من انصراف الزائر يقتحم المكتب شرطيان يلهثان.

ـ لقد دخل إلى هنا أحد المجانين يا أفندي. لقد هرب من العصفورية. ونحن نبحث عنه.

١١ تموز ١٩٥٠

المرايا «المعجزة»

أقيمت مأدبـة عامرة في دار داؤود سويوفار، وكيل قطع التبديل المستـوردة. وكـان في عداد المـدعـوين: مدير «لابـادا بانك» وزوجته الشـابـة، وسلفتـه البدينة، والشخصية السياسية حمزة يتهاظ ـ ـ أحد «بلداتنا» ـ برفقة عقيلته العاقر. ومدني بيك، صاحب المزارع الكبرى والأسهم وسكرتيرته، السيدة ايبيك، ذات العينين اللوزيتين، والتاجر الحاج عثمان بايور ـ من تجارنا في أضنة ـ وعشيقته فستيقا هانم.

تردد صوت المذيع من الراديو:

«أيهـا المستمعـون المحـترمـون! بهذا ننهي حفلتنـا المسـائية من الموسيقى الكلاسيكية التركية. أما الآن فإليكم هذه الحلقة من برنامج «آخر الاختراعات». يلقي المحاضرة الخبير الكبير المهندس مكي ما كينيجي».

قطبت زوجة مدير «لابادا بانك» الشابة.

ـ يا للصوت الكريه لدى هذا الموديل.

وراح الحاج عثمان الأضني يتوسل:

ـ دعونا نسمع أرجوكم. الأسبوع الماضي تحدث عن كيفية صنع القطن من الورق.

بدأ المهندس مكي ماكينيجي محاضرته على النحو التالي:

«أيها المستمعون المحترمون: الآن، ونحن نبدأ برنامجنا الأسبوعي «آخر الاختراعات»، أقلعت المحطة الذرية الجديدة في مدينة آتوم يورك الأمريكية. وقد تم بناؤها تنفيذاً لمبدأ «الذرة في خدمة الإنسان». ومن هذه المحطة سوف ينتشر الشعاع الذري إلى جميع أنحاء العالم. لسوف يكون الكشف الجديد في مجال الطاقة الذرية معجزة تهز البشرية قاطبة. فتحت تأثير الشعاع الذري ستعرض المرايا، في كل أنحاء المعمورة، كل ما عكسته منذ لحظة صنعها وحتى هذا اليوم. فعلى سبيل المثال لديكم في المنزل مرآة تستخدمونها منذ عشرين عاماً. وما ان يبدأ مفعول الشعاع الذري حتى تعرض هذه المرآة كل ما شاهدته خلال هذه الأعوام العشرين. كل التجارب التي أجريت حتى الآن انتهت بالنجاح التام. وهكذا فان الاختراع العجيب سيساعدكم في بعث طفولتكم، شبابكم وذكرياتكم عن أيام الحب والغرام.

كونوا لدى مراياكم صباح غد بعد الساعة التاسعة!».

صفقت زوجة مدير «لابادا بانك» الشابة بيديها.

ـ لكم هو رائع يا الهي، لكم هو رائع. إن لدي مرآة أستخدمها منذ طفولتي. أوه، لسوف أرى كل حياتي فيها.

نهض الضيوف من وراء المائدة، وبدأوا، بعد أن انقسموا إلى مجموعات، يناقشون المعجزة الذرية الجديدة في الصالون.

قال حمزة يتماظ ـ السياسي من «بلدائنا»، لمدني بيك، صاحب

الأسهم المحترم همساً:
ـ مون شير*! إن هذا الاختراع الجديد معجزة حقيقية. فلسوف يساعد في استرجاع الكثير من الوقائع، التي طواها النسيان. ففي ذات مرة أوسعوني في إدارة الأمن ضرباً. ولم أكد أنجو بجلدي من هناك حتى أخذت تقريراً من الطبيب الشرعي بأنني تعرضت للضرب المبرح. وتقدمت إلى المحكمة. لكن المحكمة لم تعمل على تحديد هوية من ضربني. وصدر القرار بأنني أنا أوسعت نفسي ضرباً.

وسأل مدني بيك.

ـ لكن ما علاقة المرايا بهذا الضرب يا حمزة بيك؟
ـ علاقة مباشرة جداً. فعلى الجدار في إدارة الأمن كانت هناك مرآة معلقة. ولسوف يتضح الآن كل شيء.
ـ نعم، فعلاً ـ رد مدني بيك ـ أما أنا فسأحصل بفضل هذه المرآة، على أربعين ـ خمسين ألفاً على أقل تقدير.
ـ كيف؟
ـ بسيطة. إن لدي في غرفة السفرة مرآة من الكريستال. أنت تعرف أن قصة حب طويلة كانت بيني وبين ألطينغول، ابنة كلافي ـ زاده.
ـ نعم، الجميع سمعوا بهذه القصة.
ـ لم يزوجني كلافي ـ زاده بابنته. وقد بردت الفتاة نحوي بسرعة كبيرة. أما الآن فقد وقعت بين يدي يا كلافي زاده. ولسوف أتزوج ابنتك، وأصبح مليونيراً.

---

* يا عزيزي /بالفرنسية/.

ـ لكن كيف، كيف؟
ـ أمضيت مع الطينغول أياماً بكاملها، منصرفين إلى متعة الحب في غرفة السفرة في بيتي. وغداً صباحاً ستتكرر كل مشاهد الغرام في المرآة لسوف أنقل المرآة إلى كلافي ـ زاده. . . فاهم؟ . . . إما أن يزوجني ابنته، وإما أن يفتدي المرآة.
ـ وإذا ما رفض؟
ـ هذا أفضل. إذن سأعرض المرآة أمام الجميع، كما في المسرح، وأكسب الكثير من المال. عاشت المرايا الرائعة.

كانت زوجة داؤود سيوفار، مستورد قطع التبديل، تتحدث بصوت منخفض مع فيستيقا هانم، عشيقة الحاج عثمان بايور:
ـ لا أستطيع أبداً نزع هذا الشاب من رأسي.
ـ قبلان؟
ـ نعم قبلان. كيف نساني بسرعة! لكنني سأقف غداً أمام المرآة، وأعيش من جديد تلك اللحظات الحلوة.
ـ وأنا أيضاً سأنتقم من صاحبي. لسوف أجعله يرى في المرآة كم كنت كيسة، حين التقيت وإياه للمرة الأولى. والآن لم أعد أعجبه. كلهم هكذا. هؤلاء الرجال.

كان الضيوف، الموجودون في الصالون، يتحدثون عن الاختراع الجديد، بانفعال بهيج.

كانت فستيقا ـ هانم لا تكف تكرر:
ـ آه لو يحل يوم غد بسرعة:

وترد عليها سلفة مدير المصرف، البدينة:

ـ نعم ليته يحل بسرعة. فأنا أيضاً لا أستطيع الصبر. يا لهذه الذكريات عن الماضي! آه من الصبا.

البعض أراد أن يرى في المرايا العجيبة المرحومة والدته، والبعض ـ صور الطفولة. وعلى حين غرة تردد رنين الجرس. دخل ضيف جديد ـ انه الجراح النسائي شهاب جناب الدين. كان وجهه كالحاً كما الموت.

ـ ماذا جرى يا دكتور؟ هل أنت مريض؟ ـ سأل صاحب البيت بتأثر.

ـ ألم تسمعوا شيئاً؟ ألا تعرفون شيئاً؟ ـ سأل الطبيب، وهو يئن.

ـ ماذا بالضبط يا شهاب؟ أخبار سيئة؟

ـ للتو ورد في المذياع أن المرايا ستعيد كل الانعكاسات السابقة: إن الذرة هي التي ستقوم بذلك. بينما أنتم تجلسون هنا، ولا تعرفون شيئاً.

ضحك الضيوف بدهشة.

ـ لكن هذا رائع يا دكتور.

ورد الدكتور شهاب جناب الدين بيأس:

ـ يبدو أنكم جميعكم قد جننتم.

ثم انتحى بالرجال جانباً.

ـ إن في هذا الاختراع الجديد هلاكي. فلدي في غرفة العمليات، مقابل الطاولة، مرآة كبيرة معلقة.

ـ طيب وماذا في ذلك؟

ـ هل يعقل أنكم لا تفهمون؟ لقد هلكت. حالات الاجهاض، الولادة... كل هذا والكثير غيره سينكشف منذ صباح الغد.

وراح الرجال يتلفتون:

ـ تباً..

ـ هذا لم يخطر لنا ببال .
ـ كل عارنا . . .
ـ وحتى الجريدة، التي . . . عفواً، ليس هذا ما قصدت قوله . . .

دب الذعر بين النساء لدى سماعهن همس الرجال. وقالت زوجة داؤود سويوفار، وهي تئن :

ـ إنها نهاية سعادتي العائلية، بعد عشرين عاماً من الحياة الزوجية. فغداً سيكتشف زوجي كل شيء . . . في البداية مع أحد سائقيه، ومن ثم مع سائق آخر . . . وكل ذلك أمام المرآة!

وقالت فستيقا هانم :

ـ ومن كان يخطر بباله أن المرايا ستفضح كل الأسرار في يوم من الأيام . . .

ـ أما أنا ففي كل صباح أختلس من جيبه . . . من جزدانه . . . كل صباح . . . عندما يكون نائماً . . . حتى الآن لم ينتبه لشيء. وغداً سيكتشف كل شيء .

وتمتم الحاج عثمان بايور:

ـ ما كان علي أن أقيم علاقة مع الخادمة، لقد أغواني الشيطان .

كانت الآهات والحسرات تتردد أقوى فأقوى .

وقد مزق صمت السكون هذا صوت شهاب جناب الدين، الخشن :

ـ أيها السيدات والسادة المحترمون! هل مازلتم تشكون في أن هذا الاختراع الجديد، هذه المرايا ـ العجيبة، ستحطم سعادتنا؟

ـ كلا إننا لا نشك، فهذه المرايا ستقضي علينا .

وقال الدكتور، وهو يسبك كل كلمة:

- كل شيء واضح: إن المرايا، المعرضة للاشعاع الذري، تهدد بالاخلال بالنظام الاجتماعي.

وترددت الأصوات من كل مكان:

- صحيح... صحيح... لكن ماذا نستطيع أن نفعل؟

- كيف سنتدبر الأمر؟

- هل هناك وسيلة ما للنجاة؟

وأعلن الدكتور شهاب جناب الدين:

- الطريق الوحيد للنجاة هو تكسير كل المرايا إلى قطع. وقال مدني بيك مؤيداً:

- هذا قليل... إن علينا أن نحطمها تماماً.

وصاحت السكرتيرة، ذات العينين اللوزيتين - السيدة إيبيك - بصوتها الوديع الصافي.

- لسوف ندق هذه المرايا في الجرن، ونحولها إلى مسحوق.

تفرق الضيوف كل إلى بيته.

في تلك الليلة ظلت الضجة الكبيرة قائمة في كل بيت من بيوت المدينة حتى الصباح. كانوا يدقون الزجاج في كل مكان.

في الصباح أصيب جميع عمال القمامة بالذهول - فقد كانت أكوام الزجاج المحطم ملقاة في كل مكان. وكانت الشوارع مغطاة بغبار الزجاج.

وفي تمام التاسعة صباحاً تردد صوت المذيع، على إيقاع الموسيقى:

«أيها المواطنون: إن أفضل المرايا في العالم هي مرآة «المعجزة»، فهي لا

تعكس صورتكم إلا عندما تنظرون فيها. انتبهوا إلى الماركة... مرايا «المعجزة»:

خلال يوم واحد أصبح صاحب معمل مرايا «المعجزة» مليونيراً.

مجنون بالاكراه

أيها الأصدقاء ـ بدأ الرجل ذو النظارة ـ لا لزوم للعجلة في مثل هذه الأمور. يجب التفكير ملياً بكل شيء ووزنه.

وقد أيده أقل الحاضرين عمراً:

ـ نعم يجب التفكير جيداً، وإلا فاننا قد نجر على أنفسنا مصيبة كبيرة.

واقترح الرجل، ذو الوجه المنمش:

ـ قبل كل شيء، دعونا نوضح، بشكل نهائي، هل نحن راضون عن المحافظ أم لا؟

ـ غير راضين ـ أعلن الجميع بصوت واحد.

وسأل المنمش:

ـ ولماذا أنتم غير راضين؟

ـ إنه مجنون ـ أجاب ذو النظارة.

وكان الباقون من أنصار هذا الرأي.

ـ نعم، نعم، مجنون.

ـ شبه مجنون، مختل.

وقال المنمش:

ـ كل شيء واضح. هذا هو بيت القصيد. ولكن أخشى أن يكون من نختار مثله.

ولاحظ الرجل ذو الكرش:

ـ لكن المحافظ الأسبق كان مجنوناً أيضاً.

ـ في هذه الحال ـ قال الشاب ـ علينا أن نتصرف بمنتهى الفطنة، والحذر. سنختار الشخص الذكي ذا التفكير السليم.

ـ لكننا حين انتخبنا السابقين لم يخطر لنا ببال أنهما مجنونان، لقد انتخبنا أناساً فطنين، سديدي الرأي، لكن تبين أنهم مجانين تماماً.

وقال العجوز الهزيل، الذي لم يكن يكف عن السعال:

ـ الله! الله... أمر غريب! إن كل من يشغل هذا المنصب يصبح مختلاً.

وقال البدين مصححاً:

ـ ليس من يشغل هذا المنصب، بل من نضعه في هذا المنصب.

وهز الشاب كتفيه.

ـ لا دخل للمنصب هنا. إنني واثق أنهم لم يكونوا طبيعيين قبل أن يصبحوا محافظين، وكل ما في الأمر أنه لم تكن هناك مناسبة لاظهار جنونهم. لكن يكفي أن تأتمنهم على السلطة حتى يجمحوا.

وتنهد العجوز النحيل:

ـ في كل مرة تتكرر القصة نفسها. كل محافظ نختاره نتبين أنه مجنون. ليس بينهم عاقل واحد.

وهز المنمش رأسه بأسى:

ـ لكن مهما قلتم فان المحافظ الأخير كان صديقي ثلاثين عاماً. في

السابق كان يبدو لي طبيعياً جداً. لكن ما إن انتخبناه محافظاً. . .

ـ طيب، فليس كل المجانين يولدون مجانين. من الواضح أنه كان ينتظر حتى نجعله محافظاً لمدينتنا، وعند ذلك فقط جن.

ـ طيب يكفي ـ أوقف ذو النظارة النقاش ـ ما فات مات. الأفضل أن نفكر من ننتخب في هذه المرة. كل الترشيحات، التي طرحت رفضت للتو. كان لا بد من أن تكون الحالة العقلية للمحافظ الجديد لا تدعو إلى القلق، لا اليوم ولا غداً.

تم استعراض العديد من الأسماء. لكن أياً منها لم يحظ بموافقة الجميع.

أخيراً صاح ذو النظارة:

ـ كيف لم يخطر ذلك ببالي من قبل؟ ما رأيكم بترشيح راسم بيك؟

ـ قسماً بالله إنه إنسان شريف.

ـ شريف، ومهذب ومتواضع.

ـ ليس حسوداً، ولا بخيلاً ولا غبار عليه.

ـ محب للعمل، وصاحب خبرة.

كانت مدائح راسم بيك تتساقط كما حبات البرد.

قال البدين:

ـ أخشى أن لا يوافق راسم بيك على أن يصبح محافظاً.

ـ إنني أعرف راسم منذ الطفولة. لا أعتقد أنه سيوافق على شغل هذا المنصب ـ أيده العجوز النحيل.

وكان المنمش من أنصار هذا الرأي:

ـ بالطبع كلا. لن يوافق أبداً. فهو لا يحب التورط في أمور من هذا

النوع .

وقد شاطرهم الشاب رأيهم :

ـ لن يقبل بعرضنا .

وصاح ذو النظارة :

ـ لكن ما العمل؟ لنحاول ـ في كل الأحوال ـ إقناع راسم بيك . الإنسان اللائق الوحيد ـ هل يعقل أن يرفض هو أيضاً؟

لم يكن هناك شك في أن يتم انتخاب من يرشحه المجتمعون . فقد كانت ثقة الناس بهم غير محدودة ، ولا يمكن أن يخطر ببال أحد أن يخالف رغبتهم .

نهض الجميع قاصدين راسم بيك . وقد أوضحوا له الوضع : إن كل من ينتخب محافظاً ، نكتشف في النهاية أنه . . . كيف نعبر عن ذلك . . . ليس على أتم مايرام . . .

وسأل راسم بيك :

ـ ماذا نويتم؟ أو تريدون أن تجننوني أنا أيضاً؟

ـ معاذ الله . فأنت إنسان عاقل وذكي . نرجوك رجاء حاراً أن توافق .

ـ كلا ، أبداً .

ـ هذا واجبك تجاه الوطن يا راسم بيك .

ـ تجاه الشعب .

ـ الأمة تعلق عليك الآمال يا راسم بيك .

ـ هذا أمر في غاية الأهمية يا راسم بيك .

ويردد راسم بيك :

ـ طيب موافق ، لكن بشرط .

ـ قل .

ـ إننا نقبل بكل شروطك سلفاً .

ويقول راسم بيك :

ـ إن شرطي هو التالي ـ إنني إنسان صريح ، فلا تقولوا فيما بعد أنني لم أحذركم . إنني لا أطيق أي تزلف . لن تقيموا على شرفي أية مآدب ، ولا حفلات استقبال ، ولن تمدحوني بما ليس في ، ولن ترفعوني إلى السماء . فهـل ستنفـذون شرطي؟ فأنا مجرد إنسان ، وأنا بدوري قد أصاب في عقلي . هل أنتم موافقون؟

وصاح الجميع بصوت واحد :

ـ موافقون .

ـ يا للإنسان الشريف .

ـ يا للعقل السديد .

ـ برافو يا راسم بيك .

فاز راسم بيك في الانتخابات ، وأصبح محافظ المدينة . وفي صباح اليوم نفسه تلقى زهاء خمسين برقية تهنئة . فتح راسم بيك واحدة منها . وإليكم مطلعها : «راسم بيك المبجل! ابن الوطن الأبر! يا من اختارك الشعب . . . » .

لم يقرأ راسم بيك أكثر من ذلك .

ـ صن لي عقلي يا إلهي ـ قال متوسلاً .

وبعد فترة قصيرة قرع الباب . دخل ذو النظارة ، يحمل طاقة كبيرة من الأزهار . وبعد أن انحنى انحناءة خنوع هنأ المحافظ الجديد باحترام .

وعبس راسم بيك .

ـ ما الداعي إلى هذا اللغو!

وكان القادم التالي العجوز النحيل . كان يحمل في إحدى يديه عكازاً، وفي الأخرى ـ طاقة هائلة من الأزهار. وبعد أن انحنى انحناءة كبيرة، وقع على يد راسم بيك يلثمها . فقطب، وقال ببرودة :

ـ عبثاً تتعب نفسك .

ولم يبلث أن شرف جميع الباقين: الشاب، الرجل المنمش، البدين . حيث هنأوا راسم بيك، وقدموا الاحترام الأكثر خسة، ثم انصرفوا .

ورفع راسم بيك يديه نحو السماء .

ـ احفظ لي عقلي يا رب .

وعند الظهيرة أخبروه :

ـ ستقام مأدبة على شرفك .

وبينما راح راسم بيك يشاور نفسه هل يذهب أم لا كانت السيارة قد وصلت .

كانت صالة المأدبة مزدانة، كما الاستراحة في أحد القصور، وكانت المائدة المخصصة لأربعين شخصاًتذهلك بوفرة الكريستال والأزهار والشمعدانات الفضية .

نهض ذو النظارة، والقدح في يده، وبعد أن بدأ كلمته بالتهاني تابع يقول :

ـ أيها العقل العظيم . . . الفريد من نوعه! البارز، بفضلك، بفضل طاقتك استطاعت مدينتنا، خلال فترة قصيرة . . .

نهض راسم بيك ـ من وراء المائدة، وقد احمر وجهه، ثم انصرف إلى البيت. «سيكون هذا درساً جيداً لهم» ـ خطر له.

في اليوم التالي توجه إلى العمل فرأى الشوارع مزدانة. وكان الطريق كله، من البيت حتى دار البلدية، مفروشاً بالسجاد، وكانت الطبول تقرع والزمور تعوي بشكل ممطوط، وأغصان الغار في كل مكان، وعلى طول الرصيفين اصطف التلاميذ.

ودوى التصفيق وترددت الهتافات:

ـ عاش...

وصاح الشاب مخاطباً قارع الطبل في فرقة المدينة:

ـ اقرع بكل ما أوتيت من قوة:

ومن ثم مخاطباً التلاميذ:

ـ أقوى، أقوى!

ـ عا ـ ا ـ ا ش ش ش..

وفي الشوارع نحرت الخرفان.

وأمام مبنى البلدية نصب قوس، مزدان بأغصان الغار. وعلى القوس كان يبرز شعار: «عاش محافظ مدينتنا الجديد».

صعد المنصة، التي أقيمت أمام البلدية، الرجل صاحب الكرش، وبدأ خطبته العصماء:

ـ إن محافظنا الجديد، الذي كسب قلوب جميع سكان المدينة بنشاطه، بشرفه. بقدراته التنظيمية، بإخلاصه للوطن...

وثب راسم بيك، وقد استشاط غضباً، باتجاه الخطيب، وانتزع من يديه أوراق خطبة المديح، ثم مزقها.

ـ إنني احتج ـ صرخ في وجه البدين.

وصاح الرجل المنمش:

ـ أيها المواطنون. أليس هذا مثلاً على التواضع البالغ الندرة؟ هل سبق أن رأى أحد منا شيئاً من هذا القبيل؟ عاش محافظنا الجديد.

ـ عا ـ ا ـ شـ ش . . .

ودوت عاصفة من التصفيق.

دخل المحافظ الجديد مبنى البلدية راكضاً. هرباً من التبجيلات، كما يهرب من الكارثة الطبيعية.

كان مكتب الاستقبال في البلدية غاصاً بالناس ـ الجميع كانوا يريدون تهنئة المحافظ الجديد.

وسأل الشاب باحترام، وقد وضع يديه على بطنه:

ـ ما هي أوامركم؟

وقال العجوز النحيل بتزلف:

ـ لم يسبق أن كان هذا المنصب لائقاً بأحد كما يليق بكم.

وصرخ المحافظ:

ـ أقسم بالله أنني سأستقيل! انصرفوا من هنا فوراً.

تقهقر الحاضرون نحو باب الخروج، وهم ينحنون.

ـ حاضر!

ـ أمرك.

ـ إن كلمتك قانون.

وتنفس راسم بيك الصعداء:

ـ أنقذني يا إلهي.

ونصحه المنمش:

ـ هل تسمح فترتاح يا أفندي!

وأضاف ذو النظارة:

ـ تصرفوا كما يحلو لكم يا أفندي، لكنني أنصحكم أن لا ترهقوا أنفسكم منذ اليوم الأول.

وصرخ راسم بيك بحنق:

ـ انقلعوا من هنا.

لم يكن بمقدوره أن يعمل، فخرج من مبنى دار البلدية.

وفي الشارع صاح الشاب:

ـ افتحوا الطريق... فالمحافظ قادم... طريق... طريق.

أوصد راسم بيك باب بيته على نفسه، ولم يظهر في ذلك اليوم في الشارع.

وفي الصباح أوعز بأن يجلبوا له الجريدتين، الصادرتين في المدينة. وفيهما كلتيهما كانت تبرز صورته بحجم كبير. وقد كتبت الجريدة الأولى: «العقل العظيم، مفخرة سكان مدينتنا». أما الثانية فقد كتبت: «المحافظ الأكثر نشاطاً في العالم». وكانت الجريدتان، كلتاهما، مملوءتين بالمدائح والاطراءات له.

وعند المساء جاءت السيارة إلى بيت المحافظ. وأعلن الرجل، صاحب الكرش:

ـ لقد وصلت الراقصات إلى مدينتنا. فهل يحضرن إلى عندكم في البيت، أم أن فخامتكم ستشرفون الكازينو شخصياً؟

ـ سأذهب إلى الكازينو ـ قال راسم بيك.

في الكازينو ألقى الشاب كلمة بدأها بقوله :

ـ إن محافظنا المحترم ، الذي يعتبر تنفس الهواء معه سعادة كبيرة . . .

ظل يتحدث ما يقرب من نصف ساعة وفي هذه المرة أيضاً قاطعه راسم بيك .

وبعده جاء دور ذي النظارة :

ـ إن سعادتنا لا حدود لها، لأن إنساناً فاضلاً وخلوقاً مثل محافظنا المحترم . . .

واكتفى راسم بيك بالابتسام . . .

مر حوالي العام .

ومن جديد اجتمع الأشخاص إياهم .

ـ كلا أيها السادة . لا سبيل لنا إلى كبح جماحه .

ـ الأمر واضح . فهو مجنون .

ـ لقد تفوق هذا على كل من سبقه . والمصيبة أننا نحن الذين انتخبناه لنا محافظاً . فظاعة .

ـ متعجرف! من يسمعه ، يعتقد أنه هو مبدع المعمورة .

ـ ومركز الأرض .

ـ يا للغطرسة .

ـ كل المجانين هكذا .

ـ طيب، وماذا نفعل؟ هل يعقل أننا سنتحمل هذا الأبله حتى الانتخابات الجديدة؟

ـ إيه ، كلا يا عزيزي! لا داعي لذلك . . . إن مكانه هو مستشفى الأمراض النفسية . تصوروا أنه حول البيت ، الذي ولد فيه إلى متحف .

وأمر بنصب تمثال لنفسه في الساحة.

ـ البارحة بصق في وجه أحد أبناء مدينتنا.

ـ ليلة البارحة شرب حتى سكر، ثم صعد إلى مائدة الحفلة، وأدى رقصة هز البطن.

ـ ماذا نفعل بهذا المريض النفسي؟

ـ يبقى شيء واحد: عرضه على الأطباء والحصول على تقرير، وإرساله إلى مستشفى الأمراض النفسية.

وقال لابس النظارة:

ـ لا يجوز أن نضيع الوقت، وإلا فقد ينقض على أحد، ويخنقه.

ـ نعم، نعم، يجب أن نسرع.

ـ سنوعز غداً بربطه، ونقله إلى المستشفى.

وبعد ذلك نباشر الانتخابات الجديدة.

ـ حسن، ومن سنختار محافظاً؟

ـ سنكون حذرين. على الأقل لن نفشل في هذه المرة ـ سننتخب الإنسان الطبيعي.

ـ مضبوط، فقد شبعنا من المجانين.

مأدبة بمناسبة تركيب المرجل[1]

الأول:

ـ تفضل يا أفندي، أرجوك. إلى هنا، إلى هنا. إننا نكن عميق الاحترام لصحفيينا الأمجاد. نعم ـ م ـ م...

الثاني:

ـ تهانينا يا أفندي.

الثالث:

ـ شكراً، لكنني لا أفهم بأية مناسبة؟

ـ كيف! لقد ركبنا مرجلاً جديداً.

ـ آه، نعم، صحيح، مرجل، أليس كذلك؟ مستحيل بدون مرجل يا أفندي. فالمرجل شيء هام جداً.

ـ تفضل إلى البوفيه. هيه واحد أبيريتيف[2]. لقد وافق السيد المحافظ

---

(١) فازت هذه القصة بجائزة «السعفة الذهبية» في عام ١٩٥٧ في ايطاليا.

(٢) aperitib (فرنسية) مشروب كحولي خفيف لفتح الشهية / المترجم.

نفسه على أن يسعدنا بحضوره. ونحن بانتظاره بين دقيقة وأخرى.
الرابع:
- لقد سبق أن التقينا.
الخامس:
- إن وجهك ليس غريباً علي. لقد سبق أن رأيتك في مكان ما. مهلاً، مهلاً، ألم تكن في المأدبة، التي أُقيمت بمناسبة تدشين البوابة الجديدة في المسلخ؟
- للأسف يا أفندي كلا. تصور أنهم يقيمون المآدب في يوم واحد. فهل تلحق؟ في تلك الأمسية كان عبدكم المطيع موجوداً في المأدبة، التي أُقيمت بمناسبة إنجاز بناء الأنبوب في معمل الزجاج.
- آخ يا أفندي، لم أتمكن من حضور تلك المأدبة. لقد حدثني الأصدقاء أنه كانت هناك الدراريج المشوية الممتازة. لكم هو مؤسف يا أفندي أن الإنسان لا يلحق أن يحضر مأدبتين، دفعة واحدة.
- انتظر... لقد تذكرت أين رأيتك. بمناسبة شراء سفينة من اليابان...
- بالطبع... لقد أُقيمت مأدبة، ودعيت إليها. الآن تذكرت أنا أيضاً. لقد انتبهت إليك فوراً. فلم تكن تأكل إلا الفطائر بالقشدة.
- صحيح، صحيح، «أموت» بالفطائر بالقشدة يا أفندي قبل ذلك كنت قد أكلت حتى التخمة في المأدبة، التي أُقيمت بمناسبة... بأية مناسبة؟... نسيت... ولذا لم أستطع تناول أكلات اللحوم المفضلة.
السادس:
- وما هو هذا المرجل؟

السابع :

ـ لا أعرف حقاً. إنه مرجل كما ترى. أعتقد، على كل حال، أنه ليس من أجل غسل الثياب.

ـ شهية طيبة. أما أنا فمعدتي تؤلمني جداً. يا لها من حرقة.

ـ وعندي أنا يا أفندي. الجميع في الآونة الأخيرة يشكون من المعدة. إنه مرض الجميع. إنني أحمل الصودا معي، يمكن أن أعطيك نتفة إذا أردت. تناولها.

ـ آخ يا له من بعد نظر! أشكرك. وأنا أيضاً سوف أحمل الصودا معي. أور ـ ر ـ ر ـ ر. .

ـ هل ساعدتك يا أفندي؟ لقد تجشأت وهذا جيد.

ـ أو ـ و ـ و ـ و. . . ر ـ ـ ر ـ ر ـ ر. . . أو هو، إن الديك الرومي المشوي ليس بالسيء! تذوق!

ـ أشكرك، فأنا أفضل البقلاوة.

الثامن :

ـ من هذا السمين؟

التاسع :

ـ أيهم؟ ذاك، الذي يشرب الويسكي؟

ـ كلا، غيره.

ـ ذلك، الذي يأكل الموز؟

ـ لا، لا.

ـ ذلك، الذي يأكل لحم العجل البارد؟

ـ لا، لا، بل ذلك الذي مد يده خلف ظهره.

ـ آ ـ ا ـ ا . . . لا أعرف، لكنني أراه دائماً.
نكرة:
ـ ليس الحفل هو المهم. كل هذه المآدب مجرد حجة . . .
آخر:
ـ طبعاً. وهل هناك مجال للشك؟ أقسم بالله لولا هذه المآدب لما استطعنا أن نرى بعضنا.

في طفولتي ـ يا أفندي ـ كان المرحوم والدي يأخذني من يدي، ويقودني يومياً إلى أحد المزارات: الاثنين إلى سكوتاري، الثلاثاء إلى قاسم باشا، الأربعاء إلى تشيوريوكليوك، الخميس إلى ميغليانا كابي. كل يوم كنا نذهب إلى حارة جديدة. وكانت الصواني النحاسية تترنح تحت ثقل المأكولات من كل ما لذ وطاب. وهكذا نحن . . .
ـ ليس من أجل الأكل، بل منم أجل الحب والصداقة.
ـ دون شك. هل تأكل الكبد المقلي؟
ـ إن خادمك المطيع «يموت» في الضولما[1]. إنها مطهوة بشكل جيد.
ـ ما هذا المصنع يا أفندي؟
ـ أقسم بالله أنني لا أفهم شيئاً. إن الآلات تدل على أنه أحد مصانع المكائن.
ـ أو! مصنع جبار.
ـ مهما كان يا أفندي فان الحضارة تتطور. . . أنصحك بسمك الأسقمري المحشو، رائعة!

---

(١) محاشي الباذنجان، الكوسا، الفليفلة والملفوف.

ـ لا أستطيع الافراط. ليبق هناك مكان، فمن هنا علي الذهاب إلى مأدبة أخرى، بمناسبة تدشين. . .

ـ حتى ذلك الوقت تكون قد هضمت كل شيء يا أفندي.

قلت مأدبة؟ وأنا أيضاً قد أذهب.

ـ نعم. . . طبعاً. . . هلا رافقتني. . .

لا يستطيع الإنسان ـ يا أفندي ـ أن يتمزق إلى قطع. فتفوته للأسف بعض المآدب.

ـ فعلاً للأسف. منذ عهد قريب كتبت الصحف أن الأمريكيين يزمعون إعطاءنا جهازاً ذرياً. ربما تكون هذه هي مؤسستنا الذرية الجديدة؟

ـ الجميع يتحدث عن مرجل.

ـ يجب أن نفوز، يجب أن ننتصر يا أفندي! يجب أن نعمل، وننتصر. .

أحدهم:

ـ وهل سيقصون الشريط؟

وواحد آخر:

ـ إنهم ينتظرون سيادة المحافظ.

ـ ومن هو صاحب هذا المصنع يا أفندي؟

ـ أعتقد أنه أحد الأمريكيين.

ـ لا أظن، فالأمريكيون لا يقيمون مثل هذه المآدب. أنا واثق أنه مصنعنا. لكن لمن هو يا ترى ـ إدارة الاحتكارات أم مؤسسة المياه؟

ـ وهل هذا كلام! فهل يصنع الماء في المصانع؟ وعلى العموم بودي أنا أن أعرف أين نحن.

ـ أظن أنه مصنع المراجل.

ـ إذن فهـو تابع لادارة الاحتكارات. يبدو أنهم يصنعون هنا المراجل لإنتاج العرق. ذلك السيد التقيه في كل مأدبة.
ـ ومن هناك على منصة الشرف؟
ـ النواب. إنهم مدعوون أيضاً. هل ستذهب إلى المأدبة، التي ستقام بمناسبة تدشين. . . ذلك؟ ما اسمه؟
ـ من الحرج أن لا أذهب. لكن اللوز ليس طازجاً.
هل انتهيت؟
واحد:
ـ إن ازدهار الدولة لا يتم بدون بناء المصانع.
واحد آخر:
ـ آه لو تم كل يوم تدشين مصنع. . . السرطان البحري رائع. . .
ـ لو أنك ذقت السرطان البحري في مأدبة البارحة، التي أحييت بمناسبة تدشين. . . لمن هذا الصبي؟ أهو ابنك؟ باركه الله.
ـ وباركنا جميعاً.
ـ خذ يا بني. خذ ما يحلو لك! تفاحة، برتقالة؟ أم كاتو؟ كل يا بني.
ـ هس س س. . . لقد جاء الأفندي.
ـ من هذا؟
ـ لا أعرف. إنه صاحب المعمل على الأرجح. وربما الوزير نفسه.
ـ يبـدو أنه المدير العام. لدي سؤال لك. فنحن متعارفان من زمان، نلتقي في كل مأدبة، في كل حفلة. اعذرني على فضولي، لكنني لا أعرف ما هو عمل سيادتكم؟
ـ خادمكم المطيع؟ هيه ـ يه ـ يه. . . انتبه فالأفندي يبدأ كلمته بمناسبة

تركيب المرجل.
الخطيب:

السادة المحترمين! من كل قلبي اهنيء جميع الحاضرين (رنين السكاكين والشوك) بمناسبة تركيب المرجل الرابع في محطتنا الكهربائية في تيزغياتارغا. لقد ركبنا هذا المرجل بأنفسنا، بدون مساعدة أمريكا. إن تصميمنا، نشاطنا، حماسنا، التي بفضلها فزنا على فريق كرة القدم الهنغاري ٣/١. قد تجلت هنا أيضاً، فلدى تركيب المرجل على الفرن لم نكن بحاجة لأية مساعدة غريبة، إذا ما استثنينا ثلاثة خبراء أمريكيين، ومهندسين أمريكيين اثنين، وثلاثة معلمين أمريكيين. وكما ترون فان المرجل، الآنف الذكر، قد رفع على الفرن بوسائلنا الوطنية. يجب أن أقول أنه بعد تركيب المرجل رحنا نتساءل عن السبب، الذي يحول دون غليان الماء. وقد تبين أن الفرن يقع على بعد ستة أمتار منه. ولما كان المرجل كبير الحجم فقد رأى الخبراء أن من الأنسب بناء فرن جديد تحته. إن مرجلنا هو الأكبر، ليس في الشرق الأوسط فقط، بل وفي البلقان. وهو بالإضافة إلى ذلك كله نحاسيٌ ومبيض. ولم تكتشف الثقوب إلا في مكانين. وقد قمنا بسدها بأنفسنا، بالاعتماد على الذات، بواسطة العيدان والقطن والقطران. ولم تكن ثمة حاجة إلى المساعدة الأمريكية هذه المرة. ولم تعد المياه المنبجسة من تحت الرقع قادرة على إخماد النار في الفرن. أنتم تعرفون أن المدينة كلها بدون ماء الآن، لأن بحيرة تيركوس أصبحت ضحلة. ولولا هذا الظرف إذن لأجرينا التجربة أمام أعينكم. إن أمامكم نفس المرجل، الذي قلبه الانكشاريون أثناء انتفاضة

كاباكتشا مصطفى[1]. ومن ثم وصل هذا المرجل إلى قصر الصدر الأعظم، كيركياخ خليل باشا، وظل لفترة طويلة يستخدم لطهو عاشوراء[2]. وبعد ذلك ظل سنوات طويلة يقوم بمهمة مرجل البخار على العبارة المتحركة. كانت للمرجل تسع مسكات. وقد ابتكرنا العاشرة، وركبناه في محطتنا الكهربائية. إن للمرجل...

أحدهم:

ـ لقد طال الحديث عن المرجل. أنا ذاهب...

واحد آخر:

ـ وأنا ذاهب أيضاً. وغداً نلتقي في المأدبة التي ستقام بمناسبة...

هي... ي... ي.

ـ رائع. إلى الغد.

ـ إلى اللقاء.

الخطيب:

ـ إن هذا المرجل.

---

(١) في عهد الانكشارية كان قلب المراجل يعني الدعوة إلى التمرد.

(٢) عاشوراء أكلة تصنع من القمح والزبيب، توزع على الفقراء في عيد الإمام الحسين.

ثريا ذات خمسة قرون

في المقهى غالباً ما كنت التقي بدينا قصيراً. ولم أكن أعرف من يكون.

كانت تلك أياماً قاسية، حينما كنت جالساً، بدون عمل وبدون نقود. ولكي نتخلص من تلك الحالة قمت وزوجتي بتصنيف حاجياتنا إلى ضرورية ـ تلك التي يمكن تدبر الأمور بدونها، وتلك التي لا حاجة لنا بها بتاتاً، ورحنا نبيع كل ما بوسعنا بيعه. وبعد قليل، لم يبق لدينا في المنزل سوى الكتب، الأسرة وعدة طناجر.

وحين طردنا صاحب البيت، بقرار من المحكمة، بسبب عدم الدفع، أرسلت زوجتي وأولادي إلى منزل عمي. ولما كانت علاقتي بعمي سيئة منذ البداية فلم يكن بمقدوري زيارة أسرتي إلا بعد أن يخلد جميع من في البيت للنوم. وكانت زوجتي هي التي تفتح لي الباب، كما اتفقنا. وفي ذات مرة، وبعد منتصف الليل، دنوت من دار عمي، وقرعت جرس الباب بهدوء. وكان عمي نفسه هو الذي فتح لي الباب. ودون أن ينبس بكلمة أطفأ الضوء، ثم انصرف. وفي العتمة تعثرت،

ووقعت على شيء ما. وقـد تبـين أنها كانت كومة من الكتب. بالكاد نهضت، وتابعت طريقي، وأنا أمسك بالجدار. سمعت نشيجاً قوياً، فتحت باب الغـرفة المضاءة، فرأيت عمي وزوجتي ـ كانت تنتحب، وكانت عيناها ـ حمراوين ومتورمتين.

ـ دعيه يأخذ سقط المتاع هذا ـ كتبه، وإلا حرقتها! ـ قال العم مهدداً ـ وقبـل أن يكسب من النقـود ما يكفي لإطعـامك وإطعام أولادك من الأفضل له أن لا يأتي إلى هنا.

منذ ذلك اليوم ألفت الطريق إلى المقهى. وكان البدين القصير يأتي مثلي منذ الصباح، ويبقى هناك النهار كله.

وفي ذات مرة لم يظهر إلا عند المساء. كان يحمل في يديه ثريا، ذات خمسة قرون. وقد وضعها على الطاولة وشرب فنجاناً من القهوة. ومنـذ ذلـك الحـين كان يجيء المقهى والثريا معـه دائماً. يضعها على الطاولة، ويبقى جالساً حتى وقت متأخر، وبعد ذلك ينصرف.

في اليوم التـالي رأيت أن أحد القرون مكسور، ثم انكسر قرنان آخران واللمبات الخمس كلها. وبعد ثلاثة أيام أخرى لم يبق من القرون واللمبات شيء. ولم ينج سوى الهيكل المعدني، المصنوع من البرونز، والذي كان يبدو بين يديه كما حامل الفناجين لدى مقدمي القهوة.

الآن أصبحت ألتقي مع زوجتي في الحدائق العامة. وعلى قارعة الطريق، ونتحدث واقفين. لم يكن قرار العم قابلاً للأخذ والرد: مادمت غير قادر على إعالة الأولاد فانه يحظر علي حتى رؤية ابنته. وإذا لم أعثر على عمل، ولم تتوفر لدي النقود، فقد يتقدم بدعوى التفريق.

كنت مستعـداً للقيام بأي عمـل، لكنني، حيثما ذهبت، كنت

أصطدم بالرفض. وفي ذات مرة التقيت أحد أصحابي القدامى، وحدثته عن حالتي، ثم قلت:

- إنني مستعد للقيام بأي عمل، موافق حتى على نقل الأحجار والاسمنت للبناء.

وقال صاحبي متعاطفاً.

- إذا كان لا يهمك ماذا تعمل فمارس التجارة، ولو الصغيرة، بالتجوال. تبيع المناديل، الجوارب - تكسب ما يقوم بأودك. تعال إلي غداً ولسوف أعطيك خمسمئة ليرة. وابدأ العمل حالاً.

سجلت عنوانه، ثم افترقنا. كنت مستعداً لأن أرقص من فرط السعادة. فمن في وقتنا يعطيك خمسمئة ليرة؟ إذن مازال الطيبون موجودين.

في الصباح، وقبل الذهاب إلى رفيقي، عرجت على المقهى، كما هي العادة. ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى ظهر البدين القصير، يحمل هيكل الثريا. جلس بالقرب مني، ووضع الثريا على الطاولة.

وسلم علي قائلاً: كيف الأحوال؟

- أشكرك، وكيف أحوالك أنت؟ سألته، ثم أضفت وكأن ذلك عن غير قصد: أعذرني من فضلك على هذا الفضول؛ لكن قل لي لماذا لا تفارق هذه الثريا؟

- هذه ليست ثريا، بل عقاب حقيقي، مصيبة، وحلت بي.

- كيف - ف - ف؟ سألت بدهشة.

- إنها قصة طويلة. ليس من البساطة تصحيح الأمور حينما تأخذ منحى سيئاً. منذ بعض الوقت فقدت العمل. بالمناسبة حتى في تلك

الفترة، التي كنت أعمل فيها، كنا لا نجد ما نسد به الرمق إلا بشق النفس. ولم يكن لدينا أية مدخرات. لكن الأمور ازدادت سوءاً، وبلغ السيل الزبى. إن عندي زوجة وولدين. . .

ـ وعندي أيضاً ـ قلت بحزن.

ـ لن تفهم مصائبي.

ـ إنها نفس ما عندي.

ـ في البداية بعنا كل أغراضنا. قسمناها إلى ضرورية ـ تلك، التي يمكن الاستغناء عنها، وتلك التي لا لزوم لها بتاتاً. بدأنا من التي لا حاجة لنا بها. وان هو إلا وقت قصير حتى أدركنا أننا لسنا بحاجة لأي غرض منها، فبعنا كل شيء.

ـ مثلنا بالضبط.

ـ لم يبق إلا الكتب والأسرة، وبعض أدوات المطبخ. وحين ألقى بنا المالك إلى الشارع. . .

ـ هل أرسلت زوجتك والأولاد إلى عمك؟

ـ من أين تعرف؟

ـ لقد تصرفت على هذا النحو.

ـ نعم لقد أرسلتهم إلى عمي. منذ البداية لم تكن علاقاتي به جيدة.

كان يبدو وكأن البدين يروي قصة حياتي. فكنت أصغي إليه، وقد عقدت الدهشة لساني. لقد ذهب إلى زوجته ليلاً، وفتح له الباب عمه. وللحال أطفأ النور، فوقع البدين في العتمة على الكتب. كل شيء كما جرى معي بأدق التفاصيل. شيء لا يصدق. ترى ألم يسترق السمع إلى قصتي، ثم قرر أن يسخر مني؟

ـ أعرف، أعرف، باختصار ـ صحت به ـ لا تماطل، حدثني عن الثريا.
ـ حالاً . . . ذات مرة التقيت أحد أصحابي القدامى.
ـ وقد أعطاك خمسمئة ليرة؟
ـ نعم. لكن من أين تعرف هذا؟ فأنا لم أقل لأحد.
ـ وأنت من أين تعرف؟ فأنا أيضاً لم أخبر أحداً.
ـ هذا ما حدث لي.
ـ طيب، وهل استلمت الخمسمئة ليرة؟
ـ نعم.
ـ أما أنا فلم أستلمها بعد، وعما قريب سأذهب في طلبها. . . وماذا حدث بعد ذلك؟
ـ حين ذهبت إلى صاحبي كدت أسقط من فرط الجوع. فخلال يومين لم أتناول سوى كأسين من الشاي أقرضني صاحبي خمسمئة ليرة. ولم أكن أريد أن أستخدم المبلغ كله دفعة واحدة.

حين مررت قرب المطعم توقف نظري على الأطعمة، المعروضة في الواجهة، فكنت بالكاد أقف على قدمي. آه لو آكل. لقاء ثلاث ليرات يمكن أن آكل حتى الشبع. لكنني خفت من صرف المبلغ، إذ يكفي أن أصرفه حتى يذوب وأبقى خالي الوفاض.

حين مررت قرب مطعم اللحم المشوي ملأت الرائحة الشهية أنفي. ولم أتمالك نفسي فدخلت و. . . لكنني ـ اندفعت خارجاً على عجل. يجب أن أكسب أولاً، وبعد ذلك آكل. لدى الفرن خدرتني رائحة الخبز الطازج الزكية. ماذا لو أشتري بعض الخبز؟ كلا، لا يحق لي.

توقفت أمام البائع الجوال. كان الكعك لديه طازجاً محمصاً. هل أشتري واحدة؟ كلا! يجب أن أكسب أولاً الكثير من المال، وأعيد زوجتي وأولادي. كان الحر شديداً. وكدت أطلب كأساً من الليمونادة مع الجليد. لكنني ثبت إلى رشدي في الوقت المناسب. لسوف يرى عمي أية أعمال عظيمة سأبدع بواسطة هذه الليرات الخمسمئة. وحينذاك سيندم على سوء موقفه مني ـ هذا ما فكرت به.

كنت أكاد أموت من العطش، لكنني، وخوفاً من صرف المبلغ، لم أسمح لنفسي بشرب كأس من الماء لقاء عشرة قروش. ولم أركب الترام، بل كنت أذهب إلى كل مكان ماشياً.

أخيراً وجدت نفسي في السوق المسقوف. ولدى مروري عبر البيديستينا ـ ذلك الجزء من السوق، حيث تباع المجوهرات والسلاح والعاديات، رأيت جمهوراً كبيراً. كان هناك مزاد. كان الوقت يقترب من المساء. وقلت لنفسي: في الصباح الباكر سأشتري الدراق والإجاص، وأبدأ البيع. ولم يكن ورائي أي عمل. أستطيع طبعاً أن أذهب إلى المقهى، لكن ما الداعي لهدر النقود على الشاي والقهوة؟ الأفضل أن أتفرج على البيع، وأقتل الوقت. ثم إنه لم يسبق لي أن كنت هنا أبداً.

دخلت الصالة. كان الناس يجلسون على الدرجات، فجلست بدوري. ومن كومة من الأغراض أخذ الدلال آلة التصوير، وأعلن بصوت عال:

ـ آلة تصوير ماركة «روليفكس»، عدسة اثنان ونصف، تكاد تكون غير مستعملة. شغالة. قدر ثمنها بثلاثمئة ليرة. ثلاثمئة ليرة! هل هناك من يرغب؟ ثلاثمئة.

ـ ثلاثمئة وعشر صاح أحدهم من على الدرجات.
ـ السيد يدفع ثلاثمئة وعشراً... ثلاثمئة وعشراً، ثلاثمئة وعشراً...
ـ ثلاثمئة وخمس عشرة ـ ترددت صيحة.
كانت الأصوات تسمع من مختلف الجهات.
ـ أدفع ثلاثمئة وعشرين.
ـ ثلاثمئة وخمسين...
وخيم الصمت، وأعلن الدلال:
ـ سوف تباع لقاء أربعمئة وخمسين. آلة تصوير ماركة «روليفليكس» مع عدسة إضافية، وقاعدة ثلاثية الأرجل.
وقال أحد المشترين مخاطباً الدلال:
ـ اسمح لي برؤية الآلة.
وناوله الدلال الآلة، فقال هذا، بعد أن قلبها بين يديه:
ـ بأربعمئة وستين.
ـ بأربعمئة واثنتين وستين.
ـ بأربعمئة وثمانين! من يزيد؟... بيعت، بيعت، بيـ ـيـ ـيـ ـعت.
وضرب الدلال بالمطرقة. ومد مستخدم البيع آلة التصوير والفاتورة لمالكها الجديد، وسجل اسمه ثم قبض المبلغ.
وضع الدلال آلة كاتبة أمامه.
ـ آلة كاتبة شغالة، ماركة «ريمينغتون»! يقدر ثمنها بستمئة ليرة... ستمئة ليرة.
ـ ستمئة وليرة.
ـ ستمئة وعشر.

ـ ستمئة وخمسون . .

لم يسبق لي في حياتي أن رأيت منظراً أكثر إثارة . وكلما ارتفع السعر ازداد التوتر.

ـ ستمئة وخمس وخمسون .

ـ ستمئة وثمانون .

كنت عاجزاً عن البقاء جالساً في مكاني، فكنت لا أكف عن القيام .

ـ ستمئة وتسعون .

ـ سبعمئة .

ـ سبعمئة وعشر.

كنت متحمساً، ومنفعلاً لدرجة أنني نسيت نفسي، وصرخت:

ـ سبعمئة وخمسون .

كان صراخي قوياً، لدرجة أن الصمت المطبق خيم على القاعة على حين غيرة .

وأعلن الدلال، وهو ينظر إلي :

ـ سبعمئة وخمسون . من يزيد؟ سوف تباع لقاء سبعمئة وخمسين، تباع، تبا ـ ا ـ ا . . .

وفجأة تردد صوت:

ـ سبعمئة وإحدى وخمسون .

وهنا تنفست الصعداء .

ماذا كان سيحدث لو رست الآلة علي؟ فكل ما كان في حوزتي خمسمئة ليرة .

بيعت الآلة الكاتبة بسبعمئة وثمانين ليرة.

بعد ذلك عرض الدلال آلة خياطة يدوية. وقد قدر ثمنها بخمسمئة ليرة. وقد انتقلت إلي عدوى الجمهور، فكنت بالكاد أتمالك نفسي:

ـ خمسمئة وعشر.

ـ خمسمئة وعشرون.

ـ خمسمئة وخمسون.

ـ خمسمئة وثمانون.

ـ ستمئة.

كنت آخر من صاح. وقد التفت الجميع ناحيتي. وشعرت وكأن ماء غالياً صب علي. لقد دفعني الشيطان لأن أحشر نفسي حيث لا داعي. وقال الشخص، الجالس بجواري، والذي لا أعرفه:

ـ إنها لا تساوي ستمئة ليرة.

ـ وما دخلك أنت؟ فأنا من سيدفع، وليس أنت ـ قلت له بلهجة قاطعة.

ـ وقال: إنني ميكانيكي.

ـ وأنا بدوري أفهم بعض الشيء في الآلات.

وهنا صرخ فجأة:

ـ ستمئة وليرة.

للمرة الثانية نجوت من المصيبة.

عرضت للبيع مزهرية. ولدى كل رقم جديد كنت أنط، ولكي لا أصيح أغلقت فمي بيدي.

بعد المزهرية بيعت لوحة، مرسومة بالزيت. ثم مكنسة كهربائية.

أخيراً رفع الدلال ثريا.

ـ ثريا بخمسة قرون، شغالة... ثمنها التقديري أربعون ليرة. من يزيد؟ أربعون ليرة.

ـ أربعون وليرة.

وصرخ أحدهم عن يساري:

ـ أثنتان وأربعون.

وصرخ أحدهم عن يميني:

ـ خمس وأربعون.

ومن أمامي:

ـ ثمان وأربعون.

ومن خلفي:

ـ خمسون.

ولم أعد قادراً على تمالك نفسي فصحت:

ـ إحدى وخمسون.

كان الجو متوتراً لدرجة أنني فقدت السيطرة على نفسي.

شخص عن اليمين:

ـ ثلاث وخمسون.

عن اليسار:

ـ خمس وخمسون.

أنا:

ـ ستون.

يا إلهي، كنت أبذل قصارى جهدي لأسيطر على نفسي، لكن

ذلك كان أقوى مني .
ـ سبعون .
ـ إحدى وسبعون .
ـ خمس وسبعون .
وصل الجميع إلى درجة الهياج، ولم أشعر إلا وأنا أصيح :
ـ ثمانون .
ـ مئة .
ـمئة وعشر .
من اليسار:
ـ مئة وخمسون .
أنا :
ـ مئتان .
من اليسار:
ـ مئتان وخمسون .
ونصيح ، أنا تارة، وهو تارة أخرى. هو يزيد بالقليل أما أنا فبالكثير.
ـ مئتان وإحدى وخمسون .
ـ مئتان وستون .
ـ مئتان وإحدى وستون
ـ مئتان وسبعون .
ـ مئتان وإحدى وسبعون .
كنت بعد كل رقم جديد أتوسل «إن شاء الله يضيف أيضاً،

ولتكن الثريا من نصيبه».

ـ مئتان وتسعون.

إذا ما قال «مئتان وإحدى وتسعون» فلن أضيف قرشاً واحداً.

ـ مئتان وإحدى وتسعون.

وصحت، دون أن أتمالك نفسي:

ـ ثلاثمئة.

شيئاً فشيئاً راح السعر يرتفع إلى أن تجاوز الأربعمئة ليرة.

وصرخ منافس:

ـ أربعمئة وإحدى وتسعون.

أنا:

ـ خمسمئة.

كان يبدو أن الذي صاح ليس أنا، بل أحد آخر. . . إذا ما قال: «خمسمئة وليرة» فلسوف ألوذ بالصمت، فلم يكن لدي قرش واحد زيادة. لكن فكروا فقط، لكأن هذا الشخص كان يعرف كم لدي من المال في جيبي.

فقال:

ـ خذها، مبروكة عليك.

حل الصمت في القاعة. وصاح الدلال:

ـ ثريا بخمسة قرون. . . بخمسمئة ليرة. من يزيد؟

حين قال: «من يزيد؟» تفحصت جميع الحاضرين ولم يوجد بينهم إنسان نبيل واحد ينقذني. فقط أحدهم حرك شفتيه. أم أنني توهمت ذلك؟ وقد سارعت لمساعدته:

ـ أظن أيها السيد أنك أردت أن تقول شيئاً؟

فأجاب: كلا، لا شيء.

لقد انتهى كل شيء. . . آه من ناس اليوم! لم يبق لدى أي منهم شرف. فعند بيع الأغراض الأخرى كان الدلال يبطىء، أما في هذه المرة فقد صاح على عجل:

ـ بيعت، بيعت. وضرب بالمطرقة.

وللحال مد لي يده بالفاتورة. وسجل اسمي وعنواني. حتى أنني لم ألحق أن أتحرك، وإذا به يسجل السلعة، ويأخذ ليراتي الخمسمئة، ويسلمني الثريا. واقترب منافسي مني أكثر، وقال لي:

ـ لقد اشتريت حاجة جيدة.

فسألته:

ـ ومن أين عرفت أنها جيدة؟

ـ إنني صاحبها القديم.

ـ لا بد أنك جنحت فاضطررت لبيعها. شيء مؤسف هل تريد أن أعطيك الثريا لقاء أربعمئة وتسعين ليرة؟

فأجابني:

ـ لقد حالفك الحظ، ولا أريد أن أحرمك من هذه الحاجة القيمة.

وقلت له:

ـ لست بحاجة إلى هذه الثريا أبداً، هات أربعمئة وخذها.

لكنه عاد، فكرر أن الحظ حالفني، وابتعد جانباً.

ـ اسمع خذها لقاء ثلاثمئة ـ صحت في أثره.

لكنه لم يلتفت حتى.

اعتقدت أنني اشتريت الثريا بثمن ليس بالغالي كثيراً. لكن ما حاجتي إليها؟ أخذتها إلى السوق، حيث تباع الثريات ومصابيح الطاولات.

وسأل التجار: كم تريد ثمناً لها؟

ـ الثريا غالية. لكنني سأتنازل عنها لقاء ستمئة.

وقهقه التجار.

ـ لقاء هذا السعر نعطيك عشر ثريات جديدة ـ مثلها تماماً، لا أسوأ.

عند المساء التقيت مع زوجتي في الحديقة العامة. وقالت لي: «إما أن تذهب من هنا، وإما أن تطلق...». ـ عليك أن تجد عملاً في الحال.

أريت زوجتي الثريا، وقلت لها مطمئناً:

ـ لا تقلقي، فلم يبق إلا القليل. لقد تجاوزنا الأسوأ. لسوف أستأجر منزلاً يجعل أباك يندهش. لقد اشتريت ثريا، انظري، كم هي جميلة، بخمسة قروش.

نهضت زوجتي عن المقعد، حيث كنا جالسين، ونظرت إلي، ثم أدارت ظهرها، وجرت، دون أن تودعني.

ومنذ ذلك اليوم، وأنا لا أفارق هذه الثريا. فليس هناك مكان أضعها فيه. ولا أحد يريد أن يشتريها. فتراني أحمل هذا الشيء معي، حيثما ذهبت. الزجاج واللمبات انكسرت من زمان، ولم يبق إلا الهيكل الحديدي. إنني آسف لشيء واحد: كان معي خمسمئة ليرة، لكنني لم أتناول وجبة دسمة، ولم أشرب كأساً من الماء. ولو أنني أنفقت، ولو عشرة قروش، إذن لما تألمت روحي هكذا.

نظرت إلى البدين بشفقة. حان وقت ذهابي إلى صاحبي، الذي وعدني بالخمسمئة ليرة. خرجت من المقهى. وفي الطريق كنت أفكر في شيء واحد: كيف حدث أن حياة هذا الشخص البدين كانت شبيهة إلى هذا الحد بحياتي؟

ومن المحتمل أن هذا يثير اهتمامكم أنتم أيضاً. إذن فلتعرفوا: إن الشخص القصير البدين، الذي اشترى بالمزاد العلني ثريا بخمسة قرون، لقاء خمسمئة ليرة، لم يكن إلا أنا نفسي. لكن لكي لا يسخر أحد من حماقتي رحت أقول للجميع أن هذه الحادثة جرت لشخص آخر، وليس لي.

ليلة الرعب

هل كان يمكن أن يدور بخلدي أنني سأحاكم مع ملك وشاه؟ لا شك أنكم سمعتم بالملك المصري فاروق، الذي طرده شعبه من البلاد؟ إن زوجتـه لم تنجب له الأبناء فطلقها. ثم ان شاه ايران طلق زوجته للسبب نفسه.

وهكذا فقد قمت بكتابة فيليتون قصير عن الحرج، الذي غالباً ما يتعرض له المتوجون. وعن أي شيء آخر كان يجب أن أكتب؟ ليس عن مشاكلنا الداخلية! على كل حال لم أستطع أن أنشر شيئاً عن أبناء وطني. فأي شيء أكتب ـ أحال للقضاء فوراً. وهكذا فقد اضطررت للكتابة عن المتوجين الأجانب.

وكانت النتيجة أن كلا الملكين تقدما بدعوى ضدي. وقد شرف سفيراهما في أنقرة إلى وزارة خارجيتنا، وأعربا عن احتجاجهما الحازم، إذ أعلنـا أن فيليتـوني يمكن أن يصبـح سبباً لتردي العلاقات الودية مع البلدين المذكورين. وحركت الدعوى القضائية ضدي.

ـ لقد أهنت الملك والشاهنشاه!

ـ كلا، لم أهنهما.
ـ بل أهنتهما.
ـ لم أهنهما.

أمضينا وقتاً طويلاً في المساومة في المحكة وفي النهاية حكموا علي بستة أشهر. (كم كان بودي أن أعرف ما إذا كان المصريون قد سمعوا أنني تعذبت بسبب ملكهم؟ . . .).

إن الحادثة، التي أريد أن أرويها لكم، قد جرت لي في ذلك الوقت بالذات.

كانت أحوالي في السجن سيئة جداً: فلا يوجد قرش واحد في جيبي. كنت خالي الوفاض. ولم يكن يزورني أحد، ولا أحد يحمل لي الطرود. إن أمثال هؤلاء البائسين في السجن موضع تندر وسخرية. ومن المضحك جداً أن تحتج إذا كانوا قد زجوا بك لستة أشهر فقط. فهناك من أعطوهم عشرين وثلاثين عاماً، لكم سيسخرون منك.

ـ ستة أشهر؟ وجدت ما تستاء منه. استلق على الدكة، إقلب على جنبك، ثم على الجنب الآخر ـ وإذا بأشهرك الستة قد انتهت.

وهذا صحيح. مادمت قد وصلت إلى الزنزانة فسوف تتقلب من جنب إلى جنب ببطء شديد: تقلب إلى اليمين، وإذا بالصيف قد حل. وتنقلب من فوق فإذا بالشتاء قد جاء. وهل يمكن لفصول السنة الأربعة أن تمر على نحو آخر خلف جدران السجن الأربعة؟

كل شيء يهون، لكن ليس لدي نقود لا للدخان ولا للشاي. وفي بعض الأحيان يقدم الصليب الأحمر بعض الطعام، فامش إلى هذا الصليب حاملاً ملعقتك. . . وهناك خارج السجن الأسرة الجائعة،

الأولاد. فهم لا يرون الصليب الأحمر، حتى في الحلم. وقلت لنفسي. «ما الذي دعاك أيها النبي القديم لأن تورط نفسك مع ملك وشاه!».

فجـأة تلقيت النبأ التالي: إذا ما طلبت العفو أطلقوا سراحي. فكرت وفكرت: كلا، ما جرى قد جرى، ولن أقدم أي التماس. سأبقى صلباً، وأمضي الفترة المحددة. هل رأيتم أي مقدام ملتزم أنا!

لكن الجرأة لا تتمتع بالاحترام في عصرنا. وليس المهم التفكير بشيء ما هناك، بل يجب العمل: أكتب المقالات، وأرسلها للمعارف لتنشر في الصحف والمجلات. بدأت أكتب بهدوء. وكانت مقالاتي تنشر مغفلة، ومع ذلك فقد اكتشفوا أنني صاحبها، من أسلوبي، وفي ذات يوم استدعاني مدير السجن. كان إنساناً طيباً. وكان عنده ولدان: الابن يدرس في المـدرسـة، والبنت في الجامعة. وقال لي المدير أنه قد يتأذى بسبب مقالاتي ـ فقد ينقلونه إلى الريف، وهذا يعني أن ولديه لن يتمكنا من إنهاء تعليمهما...

ـ أشفق على ولدي ـ قال المدير متوسلاً.

أوه يا إلهي، على من أشفق: على أولادي، أم على أولاد مدير السجن؟ طيب فليكن، سوف أشفق على ولديه، لكن من سيشفق على أولادي؟ ويجب أن أعـترف أن كفة أولادي رجحت، فلم أتوقف عن الكتابة. وحينذاك خلقوا لي الظروف، التي تجعل من الصعوبة بمكان الاتصال بالخارج. كانوا يضغطون علي، ومع ذلك فقد كانت المقالات مستمرة في النشر. ومن البدهي أن الرئاسة اهتمت بالموضوع. جاءني المدعي العام، وسأل، بابتسامة حنان، عن الطريقة، التي أتمكن بها من إرسال كتاباتي. أما أنا فقد سألته عن الطريقة، التي تصل بها إلى السجن

الحشيشة، الهيروئين والسكاكين. مادام الجناة يحتاجون للحصول على المخدرات والسلاح الأبيض فأنا أيضاً سأتدبر أمر كتاباتي بطريقة ما. . .

ضحك المدعي العام بلطف. أما أنا فقد وضعوني في الانفرادي. كانت الـزنـزانـات المشتركة بالكاد تكفي لمدمني المخدرات، ولما كنت الـوحيد، الـذي يكتب المقالات. فلم يكن العثور على زنزانة منفردة لشخص واحد مشكلة.

لم يكونوا يخرجونني من الزنزانة إلا أيام الزيارات، وبعد ذلك كانوا يعودون فيوصدون الباب علي. وبشكل عام فان أحداً لم يكن يأتي إلي، وحتى إذا ما جاء فبيدين خاويتين. وهل تعرفون مدى صعوبة أن يبقى المرء وحيداً مع نفسه باستمرار؟ فما بالكم إذا كان هذا الشخص محباً للحـديث مثـلي. تذرع الـزنـزانـة جيئـة وذهاباً، تطلب الذهاب إلى المرحاض، تعود. . . لكن الوقت لا يتحرك! لا يوجد مال. ولا يوجد شيء. تغني الأغاني، وتنتهي الأغاني. تصرخ ـ فتتعب حنجرتك. لو أنهم يضعـون معي أحـداً. . . ولو آكل لحوم البشر. . . ولو عزرائيل نفسه. انني موافق على كل شيء. المهم أن يكون هناك من أتبادل معه الكـلام. عنـد المساء يأتي المراقب، ويتفحص الزنزانة. تبدأ الحديث معـه، لكنـه يبقى صامتـاً. صامتـاً يتفحص الـزنزانة. صامتاً يوصد الأبواب، وينصرف بعد أن يرن برزة الحديد في الخارج.

أمضيت في الافـرادي ثلاثة أشهر كاملة، وقد بقي على إطلاق سراحي شهر واحد. وفي هذا اليوم بالذات جاءني زائر. وأي شيء لم يجلبـه لي. . . السجـائـر، العنب، والبطيخ والجبس والزيتون والجبن والبنـدورة والمـربى. . . أووخ. أصبحت زنـزانتي شبيهـة بحـانـوت

الخضري. أكلت حتى شبعت ووضعت السلة تحت الدكة، وجلست مبتهجاً. مثل هذه الثروة يجب أن تكفيني شهراً، سوف أوزعها بحيث تكفي.

وهكذا فالطعام موجود. والآن من لي برفيق، أي رفيق... حل منتصف الليل. وأصبح الجو في الزنزانة مائلاً للبرودة. جلست على الدكة، وألقيت اللحاف على كتفي، ورحت أكتب الشعر. وفجأة: صر القفل، وانفتح الباب بزقزقة، ودخل اثنان. كان المراقب أحدهما.

ـ سيجلس هذا هنا ـ ألقي بذلك لي، ثم أدار ظهره، وانصرف.

أخيراً لم أعد وحيداً. كنت سعيداً.

ـ تفضل اجلس! قلت للقادم الجديد، ورحت أتفحصه. هم ـ م... يا للخلقة... قصير، سمين، مربع. يتمايل، وهو يمشي، كما الثور المعلوف. ولم تكن لديه رقبة بالمرة. وكان رأسه المربع قد نبت في بدنه، أما عيناه فكانتا كأنهما مغرفتان، تدوران وتبحلقان بي. ولم يكن معه أية أغراض.

ـ أهلاً بك يا صاحبي، ليت محكوميتك تنتهي قريباً.

ـ الحمد لله ـ كان صوته خافتاً ومرتجاً.

«كم هو رائع يا إلهي! إنه يجيد الكلام: إذن فهو إنسان».

ـ اجلس ـ عرضت عليه من جديد ـ لماذا سجنوك يا صديقي؟

ـ لقد صرعت أحد المغفلين... ـ ونظر إلي نظرة جعلت بدني يقشعر.

ـ وما... اسمك؟

ـ اسمي بينلي تاجي.

ـ لا تحزن يا تاجي بيه.

ـ لا تنادني بيه، وإلا تكدرت . . .
ـ طيب يا تاجي أفندي .
ـ لا تنادني أفندي، وإلا تكدرت . . .
ـ وأين جرى ذلك؟
ـ في العصفورية . . .
«يبدو أن الطين يزداد بلة . . .». ومن جديد تملكتني القشعريرة .
ـ ومتى حدث ذلك؟
ـ عصر هذا اليوم . . . لقد صرعته، فأرسلوني إلى هنا .
ـ أي يا ياي .
ـ ماذا أي يا ـ ياي؟
ـ أقصد، أنني أردت أن أقول، أن كل شيء على ما يرام . وفقك الله في كل أمورك .

لذنا بالصمت . كنت أراقبه بطرف عيني، وأنا أفكر: «يا سلام . . . إن أموري سيئة . سيئة جداً . . . كيف لي بتهدئته، وتطييب خاطره؟ . . .» .

ـ وما سبب ذلك؟
ـ اليوم هو يوم الزيارات في العصفورية . وقد جلبوا لهذا المغفل مرتديلا . فخبأها تحت الوسادة . حين يضعون شيئاً تحت الوسادة، أو تحت السرير فإنني أتكدر جداً . إذا ما جلبوا شيئاً من الخارج فيجب أن يبقى ماثلاً للعيان، لكي يأكل الجميع . . . وهكذا فقد صرعته، وهو نائم .
ـ هل تعرف يا تاجي بيه، حسناً فعلت أنك تصرفت على هذا النحو . ألا تريد بعض العنب؟ ثم إن لدي جبناً ومرتديلا . . .

ـ أقول لك لا تنادني بيه، وإلا تكدرت. .

عدنا إلى الصمت من جديد. «يا إلهي كيف يجب أن أتصرف؟. . . ».

ـ إذن حدث ذلك في العصفورية؟

ـ نعم.

ـ شيء غريب. . .

ـ وما هو الغريب؟

ـ أرى أنك إنسان عادي والحمد لله. فكيف وصلت إلى هناك؟

ـ في البداية كنت في هذا السجن. وقد صرعت هنا أحد المغفلين، فأرسلوني إلى العصفورية.

ـ أي ـ يا ـ ياي. يا له من ظلم. وذاك ـ عفواً ـ لماذا صرعته؟

ـ لقد ألقوا بي في الغرفة الضيقة المظلمة، وقيدوني بالأغلال. . . وبعد ذلك وضعوا هذا المغفل أيضاً معي. وفي ذات مرة جلبوا له من الخارج المربى، ورأيته يخبئه تحت السرير. وأنا أتكدر من مثل هذه الأشياء. إن ما يؤتى به من الخارج يجب أن يبقى ماثلاً للعيان. كي يأكل الجميع. وفي الليل صرعته، وهو نائم.

ـ لقد فعلت عين العقل يا تاجي أفندي. وفقك. . .

ـ كم مرة يجب أن أكرر: لا تنادني أفندي، فأنا أتكدر.

أخرجت من السلة علبة المربى بسرعة، ومددتها له:

ـ هلا تذوقتها، أيها المحترم!

وران الصمت من جديد. كان قلبي يضرب بشدة. فإذا ما استغثت فانه سيلحق أن يقضي علي قبل أن يصلوا لنجدتي.

ـ كيف يمكن وضع أناس من أمثالك في الغرفة الضيقة المظلمة؟ فظاعة . . .
ـ لقد صرعت أحد المغفلين في الزنزانة، وهكذا فقد وضعوني في الغرفة الضيقة المظلمة.
ـ كيف؟
ـ هكذا.
ـ أقصد أنك أحسنت فيما فعلت! قوى الله يديك! و. . . اعذرني على الازعاج ـ وهذا لأي سبب؟
ـ ليلة الزيارات جلبوا له جبسة، ولكنه . . .
ـ وضعها تحت السرير؟
ـ وأنت من أين تعرف؟
ـ كلا . . . كل ما في الأمر أنني ظننت . . .
ـ وفي الليل صرعته، وهو نائم.
وللحال أخرجت الجبسة والبطيخة.
ـ أرجوك أن تتذوق هذه وتلك. ولا تستح . . . شيء غير معقول: يا لها من حياة. . . إنسان فاضل مثلك، ويزج به في السجن! أي شيء هذا؟
ـ حين كنت مطلق السراح صرعت أحد المغفلين فزجوا بي. كنا نعيش معاً في غرفة واحدة ، وكان لديه تحت السرير. . .
ـ وحينما غفا قمت أنت . . .
ـ فصرعته. وأنت من أين تعرف؟
ـ لقد قلت هذا بالمصادفة . . . لا تهتم لذلك . . .
ماذا سأفعل مع آكل لحوم البشر هذا حتى الصباح؟ لا شك أنهم

وضعوا هذا المعتوه في زنزانتي قصداً، لكي يقتلني . . . أن أسلم رأسي دون داع من أجل إرسال بعض القصص إلى الخارج! . . .

ـ كُلْ كُلْ شيء من فضلك، ولا تترك شيئاً . . .

على مدى خمسة أشهر كانوا يأتونني وأيديهم فارغة. واليوم جلبوا لي طرداً . . . وقد نويت أن أجعله يكفيني شهراً، حتى إطلاق سراحي . . .

الليلة الفائتة بقيت ساهراً منكباً على العمل. فكانت عيناي الآن بالكاد تنفتحان. لكن إذا ما غفوت فان بينلي تاجي سيقتلني . . . ماذا أفعل حين سينقض علي؟ سوف أرمي بالسلة على رأسه، ومن ثم باللحاف والبطانية . . . وسنبقى نتعارك حتى الصباح . . . لكن كلا . فلست بقادر عليه . . .

مددت له ببطانيتي :

ـ هلا نمت .

ـ لا أريد . نم أنت .

إن لم أستلق سيزداد الأمر سوءاً . . . فاستلقيت على جنبي، وكنت مستعداً لكل شيء .

ـ إذن فأنت لم تصرع سوى أربعة . وبعد ذلك يلومونني . في الحرب يقتلون الآلاف ولكن أحداً لا يحاسب أحداً . . . أما أنت فأربعة مغفلين فقط . . . وهل يحاكمون المرء على هذا؟

لذنا بالصمت . ومن ثم همهم :

ـ وأنت لماذا سجنوك؟

ـ أنا؟ ـ سيل من الأفكار عبر رأسي . . . كلا! كان لا بد من الخروج من

هذه الورطة بطريقة ما ـ أنا. . . لا شيء. . . قتلت أحدهم. . .

ـ ولماذا؟

ـ هكذا. . . قتلته وخلاص. . .

ـ بدون سبب؟

ـ كيف بدون سبب؟ في البداية قتلت والده. . . لكن هذا الشخص أراد التدخل، فقتلتهما معاً. . .

خرجت عينا بينلي تاجي الجاحظتان من محجريهما.

ـ ولماذا قتلت الأب؟

ـ هكذا. . . أصابني الهياج، وخطر لي أن أقتله فقتلته. . .

ـ دون سبب؟

ـ كلا، نسيت: في البداية قتلت الختيارة ـ أم ذلك الشخص. . . وبعد ذلك اضطررت لأن أرسل زوجها في أثرها. . .

ـ والختيارة لأي سبب؟

ـ لم أعد أذكر يا صاحبي. . . فقد حدث ذلك من زمان. . .

ـ وكم شخصاً. . . قتلت؟

ـ قد يكون خمسة عشر، أو عشرين. . .

ـ إنك يا أخ قد خضت حرباً كاملة. . .

ابتعد بينلي تاجي عني إلى الركن المقابل من الزنزانة. وبقيت أغالب النعاس حتى الصباح، وأنا أروي له تفاصيل جديدة وجديدة.

ولم يكد يطلع الفجر حتى راح بينلي تاجي يقرع الباب الحديدي بقبضتيه. وجاء المراقب. وراحا يتهامسان، ومن ثم أخرجوا زائري الليلي.

ولم أطمئن إلا حينذاك.

حديث في المقهى

ـ مرحبا يا أفندي .

ـ ؟ . . .

ـ أفندي مرحبا :

ـ مـ ـ ساء الخير.

ـ ألن أضايقك؟

ـ أبداً . . . لكن . . . لا أستطيع أن أتذكر أين سبق والتقينا؟ . . .

ـ لكننا لم نلتق . . . ها ـ ها! حتى الآن .

ـ آخ . هكذا إذن . . .

ـ كل ما في الأمر أنني رأيتك تشرب لوحدك، فقلت لنفسي : «فلأجلس معه، وأتعرف عليه .

ـ هم ـ م ـ م . . .

ـ إذن ربما نشرب نخب تعارفنا؟

ـ بكل طيبة خاطر. . .

ـ إنني ـ أقول لك ـ لا أحب أن أشرب لوحدي . يجب أن يشرب المرء مع

شلة. أو مع الأصدقاء!
ـ أما أنا فلا أحب الزحام. أفضل أن أبقى مع نفسي...
ـ طيب، يقال أن الوحدة امتياز لله...
ـ ولي أيضاً، إن وحدانيته عظيمة، أما أنا فوحدانيتي ضـ ـئيـ ـلة...
ـ قول رائع. لنشرب نخب وحدتك الضئيلة.
ـ أشكرك.
ـ ألا تود أن تجلس إلى طاولتي؟
ـ شكراً. لا أريد أن أزعجك...
ـ إذن هل تسمح لي بالجلوس معك؟
ـ تفضل. كما تريد.
ـ مسرور جداً! كيف أحوالك يا أفندينا؟
ـ كيف أحوالي؟ وهل هذه حياة؟! الموت أفضل...
ـ أوه، ما الداعي لهذا... يجب أن يتلاشى الحزن! بصحتك.
ـ بصحتك. وكيف أحوالك أنت؟
ـ أنا؟ رائعة؟ في غاية الروعة.
ـ إنسان محظوظ... أتمنى لك دوام هذه السعادة.
ـ فلنشرب نخب ذلك.
ـ إنني معجب جداً بهذا المقهى المريح.
ـ أما أنا فلا يعجبني هذا المكان أبداً...
ـ إذن فأنت تفضل الكازينو والمطاعم الكبيرة؟
ـ لست أطيقها.
ـ إذن المقاهي المكشوفة على الشاطىء؟

ـ أمقتها!
ـ ولماذا تأتي إلى هنا؟
ـ لا أعرف. . . كي أشرب. . . فلنشرب قدحاً آخر!
ـ نخب مزاجك الطيب! إن منظرك يرثى له. . .هل حلت بك مصيبة؟
ـ ليست واحدة! كل حياتي مصيبة في مصيبة! لقد فقدت أمي. . .
ـ أشاطرك حزنك. تشجع. . . لنشرب على روحها! ومتى ماتت أمك؟
ـ خمسة وأربعون عاماً مرت. . . كان عمري حينذاك ثلاثة عشر. .
ـ لا تحزن! الزمن كفيل بشفاء كل شيء. . .
ـ يخيل إلي أن كل ذلك كفيل بشفاء كل شيء. . .
ـ لا يستطيع أي كان المساعدة في مثل هذه الأمور. . . إنها سنة الكون! ووالدتي أيضاً توفيت منذ خمسة وأربعين عاماً. وكنت في الثالثة عشرة من عمري أيضاً. الأفضل أن نشرب.
ـ يبدو وكأنك غير حزين على وفاة أمك؟
ـ ماذا تقول!. . . وأنا تعذبت بدوري. . . لكن ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟ إن الموت هو سنة الحياة. حاولت أن أنسى. . . وإلا فان الحياة مستحيلة.
ـ أما أنا فأحاول إبقاء ذلك في ذاكرتي.
ـ لكن يجب على المرء أن يحيا.
ـ وما نفع الحياة؟
ـ وما نفع الموت؟ كلنا سنكون هناك! فما الداعي للعجلة؟
ـ إنك متفائل.
ـ طبعاً. فالعالم في غاية الروعة. أما أنا فأرى أنك متشائم.

ـ طبعاً . . . فكل شيء من حولك سيء . .
ـ أما أنت فلا تول السيء اهتمامك. حاول أن لا تلاحظه.
ـ لكنني لست بالأطرش ولا الأعمى . . . دعنا نشرب قدحاً آخر. . .
ـ رائع نخب خلاصك من كل المصائب.
ـ مع الشكر الجزيل. . . أرجوك دعنا ننتقل إلى المخاطبة بضمير المفرد، فهذا أفضل بكثير.
ـ بكل طيبة خاطر.
ـ نخب صداقتنا.
ـ دع الحزن جانباً يا أخ! ابتسم للحياة!
ـ لا أستطيع . . . فالأتراح والمصائب من حولي. . . لقد مات والدي.
ـ يا للفاجعة. . . ومتى توفي؟
ـ منذ عهد قريب جداً، منذ شهرين فقط. . . كان مصاباً بالسرطان.
ـ لا تبك يا أخ. . . ووالدي توفي منذ شهرين أيضاً، وبسبب السرطان أيضاً.
ـ ولماذا لا تحزن عليه؟
ـ وما الفائدة؟ حتى ولو حملت الهم والغم، فان أبي لن يبعث حيا.
ـ أنظر إليك، فتتملكني الدهشة.
ـ وما المدهش؟ فهو لم يكن فتياً ـ لقد عاش عمراً جعله الله من نصيبنا ـ خمسة وثمانين عاماً. . .
ـ تصور أن أبي عاش خمسة وثمانين أيضاً.
ـ لا بل إنني أعتبر أن الحظ قد حالف والدي: فلقد تخلص أخيراً من الآلام المبرحة. . . لنشرب على روحه.

ـ هيا. . . ومـع ذلك فان الموت شيء فظيع. . . ما إن أفكر به حتى تصبح الحياة لا تطاق. . .
ـ أما أنا فتبدو لي حين أفكر بذلك أنها أشد روعة.
ـ لقد هجرتني زوجتي. . . زوجتي. . . فكيف لي بتحمل هذا العار؟
ـ لنشرب فننس كل شيء. . . تصور أنها هجرتني أنا أيضاً. . .
ـ ومـا الـذي يفرحك؟ واضح أنك لم تكن تحبها، أما أنا فلا أستطيع العيش بدونها. . .
ـ ما هذا الكلام. . . وأنا كنت أحبها. لكن الحياة لا تكون بالاكراه. هجرتني ـ مع السلامة.
ـ وأنا ماذا أفعل. كيف أتصرف؟
ـ بكل بساطة! طلقها، ثم تزوج من جديد. وخلاص. دعنا نشرب بهذه المناسبة. . . نخب الحب.
ـ رويدك. . . إن عندي مصيبة أخرى: لقد سافرت عشيقتي لمدة أسبوعين. . .
ـ يا له من سبب للمعاناة! وعشيقتي أنا سافرت. وأنا بدوري اشتقت إليها، لكنني سعيد أننا عما قريب سنلتقي. . . طيب نخب نجاحاتك الغرامية.
ـ إنك تدفع إلى الجنون. . . إنني مريض! فاهم؟ مريض. . .
ـ إنني أرثي لك كثيراً، صدقني. دعنا نشرب نخب صحتك. عاقرها كما يجب، تنس الأمراض. . .
ـ أوه لو أن. . .
ـ ألست مصاباً بالقرحة؟

ـ كيف حزرت؟
ـ كل ما في الأمر أنني أنا نفسي مصاب بالقرحة.
ـ وأنت بمثلُ هذا الهدوء؟
ـ وما الداعي للقلق؟ كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ ـ السرطان مثلاً. الحمد لله أنها قرحة . . . دعنا نشرب نخب أن لا نصاب بالسرطان.
ـ يا إلهي، لماذا أنا منحوس هكذا؟
ـ وماذا هناك أيضاً؟
ـ يحولـون دون ترقيتي في العمـل، فمنـذ نصف عام لم أحصـل على ترقية . . . وليس عندي معارف بين المسؤولين، ولا أحد يحميني . . .
ـ ها ـ ها ـ ها. لقد أضحكتني يا أخ. دعنا نشرب بسرعة.
ـ وما المضحك في ما قلت؟
ـ أبداً . . . ها ـ ها ـ ها . . . كل ما في الأمر أن كل هذا قد جرى لي حرفياً. فوضعي في العمل ليس باهراً . . .
ـ طيب ما الذي يفرحك إذن؟
ـ وما فائدة البكاء؟ إنني على الأقل أقوم بعملي دون تقصير، وبالامكان العيش بدون حماية. لنشرب قدحاً آخر.
ـ حين سيقلعونك من البيت بسبب عدم الدفع سوف أرى كيف ستمرح . . .
ـ آخ ـ ها ـ ها ـ ها! كدت أختنق . . . لكم أضحكتني. لا طاقة لي . . .
ـ ماذا بك؟
ـ لقد قلعوني من البيت، وحجزوا على الأغراض . . .
ـ معقول؟ وأنا أيضاً: فقدت المذياع والسجادة . . .

ـ وركبوا الأرجل لسقط متاعي . . .
ـ طيب ولماذا أنت فرح هكذا؟
ـ إنـه لم يكمن مذياعـاً، بل زبالة، أخيراً تخلصت منه، أما السجادة فكانت مرتعاً خصباً لتكاثر البق والعث. . . ما قيمة ذلك. حين ستكون لدي نقود سوف اشتري كل ما هو جديد!
ـ شيء جيد أنه يوجد لديك ما تعلق عليه الآمال، أما بالنسبة لي فالأمر ليس على مايرام أبداً. . .
ـ طيب وما هو الأمر، الذي ليس على مايرام بالنسبة لك؟
ـ طيب. . . إن ما قلته لك وحده يكفي ، ، ،
ـ وجدت شيئاً تبكي عليه. . . هيا صب.
ـ وكيف لا أبكي. . . فنتائج الانتخابات وصمة عار. كم من الأصوات خسر حزبنا الأكثر جدارة. . .
ـ وأنت أيضاً عضو فيه؟ أما أنا فأعتبر ذلك لفائدة الحزب.
ـ كيف يطاوعك لسانك؟
ـ كيف لا؟ فبعـد تلقيه مثـل هذه الصـدمـة لا بد أن يشغـل عقله، ويستجمع قواه ولو أنه وصل الآن إلى السلطة، إذن لما جنى غير العار.
ـ طيب، الأفضل أن نشرب.
ـ حاضر.
ـ لقد صدق المثل القائل بأن المصائب لا تأتي فرادى.
ـ هل عدت إلى النواح؟
ـ كيف لا. . . البارحة خسر فريقنا من جديد. . . يستحيل أن تكون البطولة لنا هذا العام. . .

ـ لست أفهم لماذا تعذب نفسك هكذا؟ إن هذا سيعجل في تخلص نادينا من التفاهة، وقد آن الأوان لطرد المدرب بالمكنسة القذرة. انتظر لسوف يبرز العام القادم.

ـ طيب، نخب فريقنا.

ـ هيا يا صديق.

ـ آخ لولا الديون. . .

ـ هل عدت إلى النق؟ طيب، وبكم أنت مدين؟

ـ أربعة آلاف ليرة بحالها. . .

ـ أربعة آلاف فقط؟ إنه نفس المبلغ الذي علي أنا. . .

ـ وأنت مبسوط؟

ـ ولم الكدر؟ إن الدين يدفع الفارس نحو الأمام، كما السوط للحصان. إنه أفضل حافز للعمل. . .

ـ أوخ مصيبة على الأبواب!

ـ لا تستطيع بدون نواح! أية مصيبة؟

ـ هل تقرأ الصحف؟

ـ كيف لا!

ـ المعمورة في خطر! سيصطدم مذنب بالأرض. .

ـ إذن فهو يوم القيامة؟ يا له من لهو! ها ها ها.

ـ لكننا سنموت جميعاً.

ـ طيب، وليكن! ها ها ها. أي لهو سيكون، يجب أن يكون! هيا فلنكرعها!

ـ أوخ أشعر بالغثيان. . .

ـ ما بالك لا تكف عن الأنين؟

ـ لا شيء. . .

ـ لا شيء ـ إذن لا تتأوه.

ـ إنني أتأوه هكذا. . . لكي تكون للشرب مناسبة. . .

ـ إنني أمدحك على هذا! أحسنت. . . ها ها ها. . .

ـ ما بالك تضحك؟

ـ لكي يكون الشرب أكثر مرحاً. . . لا يجوز أن تشرب والروح خالية من المرح!

ـ أو هو ـ هو ـ هو. . .

ـ ها ها ها.

كان المقهى الصغير غاصاً بالرواد. وعلى الجدار في مواجهة الطاولة كان ثمة مرآة كبيرة معلقة. وإلى طاولة صغيرة بالقرب منها أمضى شخص الأمسية كلها وحيداً. وكان قد أمضى الكثير من الوقت، وهو يحدث نفسه، وكانت تمتمته تقترن بالبكاء تارة وبالقهقهة تارة أخرى.

وفجأة تردد رنين. في البداية قذف الشخص المرآة بالقدح، ومن ثم بالأبريق. وتناثرت الشظايا وهي تقعقع ـ أما الجليس، الذي أمضيت الأمسية كلها معه فقد قتل.

لكن من هو الذي رحل: أهو المتفائل، أم المتشائم؟ لقد بقي ذلك مجهولاً.

بانتظار التحفة

حديث الشاعر مع زوجته

ـ إنك لست بالعبقري أبداً، بل أنت مجرد مغفل! هل فهمت؟
ـ فهمت يا عزيزتي. لكن لماذا تقولين ذلك بهذه الصراحة؟ أفلا يحق لي أن أهدهد نفسي بالأمل؟
ـ لقد نفذ صبري . . .
ـ لا تبكي يا عزيزتي. فأنت تكدرينني . . . نعم إنني واثق من عبقريتي، لكن لم أعلن ذلك بعد على الملأ.
ـ لا ينقصنا إلا أن تنشر في الجريدة إعلاناً «أنا عبقري». ثم ما الداعي للاعلان عموماً؟ حتى هكذا لا يمكن للمرء إلا أن يحزر أنك عبقري ـ يكفي أن ينظر كيف تطلق الدخان من فمك عندما تدخن، إن العبقرية تلوح في مشيتك، في سعالك، وحتى في عطسك. وأنت تنظر إلى الجميع بتعال. وتعتبر الجميع أدنى منك.
ـ ويمن يلحق الضرر إذا كنت أعتبر نفسي عبقرياً؟

ـ بي، ببيتنا. بأولادنا. فالدولة لا تدفع راتباً لقاء العبقرية. والحانوتي لا يعطي الأغراض بدون نقود حتى ولو كنت عبقرياً بالثلاثة. الشتاء على الأبواب. وليس عندنا لا حطب، ولا فحم. ثم إن حذائي مثقوب.
ـ لا تبكي يا صغيرتي، فأنا لا أجلس مكتوف اليدين، بل أكد دون راحة، وقد أصدرت أربعة دواوين حتى الآن. . .
ـ ولتكن أربعة وأربعين، فما جدوى ذلك؟
ـ إنك تتحدثين وكأن الأمر لا يهمني. أفلا أتوق إلى إبداع الروائع. إلى الشهرة. وأن يتخاطف القراء كتبي، وتترجم إلى كل لغات العالم، ألست أريد أن أصبح ثرياً؟ الشهرة والثروة. إنني واثق أنهما ستأتيان إلي فيما بعد. للأسف أنه لا يكفي أن تكون عبقرياً، إن الأعمال العظيمة وليدة الأحداث التي تماثلها عظمة. ماذا يفعل العبقري إذا كانت الأحداث العظيمة لا تحدث؟ إنني بانتظار الالهام، الذي سيسمو بروحي، ويبدع تحفة حقيقية. إنني بحاجة للأحداث العظام. هل تريدين لسفينتي أن تبحر في قصعة المطبخ؟ إن حوض السمك يضيق عني، فأنا أحتاج إلى المحيط. طيب، ماذا بك؟ بالله عليك لا تبكي يا عزيزتي! أتوسل إليك أن لا تبكي. كزي على أسنانك، فلم يبق عليك أن تصبري إلا قليلاً، فأنا أنتظر، والأمل يحدوني. إن الحديث الجلل سيزرع العاصفة في روحي، وحينذاك. . . أصبري قليلاً.

حديث الجلاد مع زوجته

ـ يكفيني. لم يعد لدي قوة. سوف أتركك.

ـ لكن يا عزيزي . . . لا جريرة لي في أن الأحوال أصبحت سيئة في الأيام الأخيرة؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ لن أشنق أول من ألتقي بهم؟ لقد أصبح القضاة بخلاء باصدار أحكام الاعدام. إن الأمل يحدوني بالحصول على عمل عما قريب. وعاجلاً، أم آجلاً، سوف تتحسن أحوالنا.

ـ لكنني على الأرجح لن أعيش حتى أدرك تلك الأيام. العام الماضي كانت معاناتنا أقل. كان الأولاد لا يتضورون جوعاً على الأقل. أما الآن فلا تستطيع إشباعهم بالذكريات.

ـ لا تبكي يا حبيبتي. فأنت تمزقين قلبي. لو كان الأمر في يدي إذن لشنقت الجميع، دون استثناء، واصلاً الليل بالنهار. ولما كنت أخلدت إلى النوم أبداً. فأنا لست كسولاً، ولا أتقاعس عن العمل.

ـ ابتكر شيئاً ما.

ـ ماذا أستطيع أن أبتكر؟ المحكمة لا تصدر أحكام الاعدام، فلا عمل لي. إنني أحصل على الأجرة بالقطعة، وليس لي راتب محدد: إن لم أشنق أحداً لا أحصل على شيء.

ـ لكأن المجرمين قد انقرضوا في بلد كبير كبلدنا.

ـ واضح أنهم لم ينقرضوا. لكن جربي أن تقولي هذا لرجال الشرطة والقضاة و. . . آه لو أن شيئاً ما كان يتوقف علي! وإذا ما تصرفت على هواي فنكلت بأحد، فسيعينون جلاداً آخر مكاني فوراً. أما أنا فسوف أتأرجح على المشنقة. فأنت تفهمين أنه يجب على القضاة أن يعجلوا، وإلا فان المحكومين قد يموتون ميتة طبيعية. لا تبكي. ولِمَ البكاء يا عزيزتي؟ لكأنني لا أريد العمل! إن بودي أن أشنق الناس يومياً. المهم

أن تعيشي مرتـــاحـة مع الأولاد. أصـبري قليلاً. إنني واثق أن الحظ سيبتسم لنا قريباً.

حديث حفار القبور مع زوجته

ـ سوف آخذ الأولاد، وأرحل. هل تسمع؟
ـ ماذا تقولين؟ وما ذنبي أنا إذا كان الناس قد توقفوا عن الموت؟ فأنا مجرد حفار قبور. يخيل لمن يسمعك أن هناك أكواماً من الموتى، وأنا لا أحرك ساكناً. ليس بمقدوري أخذ الناس، ودفنهم أحياء.
ـ ليس في البيت قطعة خبز واحدة. . .
ـ لا تبكي يا زوجتي، وإلا بكيت أنا أيضاً، فأنا سريع البكاء. لست أفهم أبـداً ماذا جرى، فلا أحـد يموت. ربما لم تبق محلات في العالم الآخر؟ لا تبكي يا عزيزتي. أرجوك. فأنت تعرفين أن أجرتي بالقطعة، وليس لي راتب محدد. وأنت لا تكفين: اشتغل، اشتغل! لا أستطيع حفـر القبـور، إن لم يكن هناك موتى. فأنا حفار قبور، ولست حفار أراضي. من سيدفع لي المال لقاء قبور خالية؟! أصبري قليلاً. يستحيل أن لا يبتسم لنا الحظ. لسوف ترين.

حديث الصحفي مع زوجته

ـ كل أحلام صباي تداعت. كنت مفعمة بالأمل، حين تزوجتك.

ـ لا تبكي. دعينا نتحدث...

ـ وعما نتحدث؟

ـ ربما تكونين على حق، لكن لا تبكي... فأنا أبذل الغالي والرخيص في سبيل إسعادك.

ـ تشتغل، تشتغل، وليس عندي فستان لائق واحد.

ـ مازلت مجرد أمين تحرير بسيط. ولكي أحقق النجاح. وأترقى، وأصبح على رأس الجريدة لا بد... من أن تجري أحداث استثنائية. طيب على سبيل المثال كارثة جوية فخمة، زلزال هائل، حريق فظيع، جريمة غامضة، أو شيء ما من هذا القبيل. حينذاك سأستطيع أن أثبت وجودي، وأتفوق على جميع الصحفيين من الجرائد الأخرى. لأقع في مكاني إن لم أغلبهم. فلا أحد يجاريني في مهارة توزيع المادة، وفي ابتكار العنوان الجذاب. لكن ما العمل إذا كنت غير محظوظ. لكأن الحياة قد تسمرت في مكانها. فأنا لا أستطيع قتل الناس، بهدف الاثارة الصحفية. لكنني واثق أن الحظ سيبتسم لي في يوم من الأيام. هل يخامرك الشك في أنني لا أريد إظهار نفسي، وأحصل على ترقية والفوز بلقب أفضل صحفي العام ـ وهل يعقل انني لا أريد كسب المال الكثير كي لا تعرف أسرتي العوز والحاجة! ربما ترتكب جريمة غداً، أو بعد غد. وحينذاك سأدبج تلك الريبورتاجات، التي ستجعل الجميع ينكبون على قراءتها... لا تبكي اشفقي على قلبي، الذي يتمزق. الأفضل أن تصلي أن يوفق الله زوجك. فلتغرق باخرة، ليحصل طوفان... لا تبكي، لا تبكي. فأنا لا أستطيع تحمل ذلك... انظري لقد دمعت عيناي.

حديث الشرطي مع زوجته

ـ لماذا أتعذب هكذا يا إلهي! . . كيف جنيت هذا العقاب؟
ـ عزيزتي، حبيبتي، وحيدتي! لماذا لا تريدين أن تفهمي وضعي؟ تعتقدين أنني لا أريد الحصول على ترفيع في العمل. لا أريد أن أشغل مكاناً دافئاً، كي يصبح كل شيء متوفراً في بيتي؟
ـ آخ لست محظوظة في حياتي.
ـ أنا من لم يحالفه الحظ. فمن سوء الطالع أنني ولدت في هذا البلد الفقير، ولو أنني ولدت هناك حيث ترتكب الجرائم دون توقف، فهل يعقل أنني كنت مفوضاً مسكيناً؟ والله إذن لكنت قد أصبحت من زمان رئيس إدارة الأمن العام. لكن ما العمل إذا كنت قد ولدت في بلد لا تقدر فيه مواهب الناس حق قدرها. إن التحقيق في حالات السطو الصغيرة لا ترقيك. . . إنني ـ بمواهبي ـ بحاجة إلى أمور كبيرة: قتل، تبذير! لا تبكي يا زوجتي، لا تبكي! أصبري، فلم يبق إلا القليل. . . شيء ما سيحدث من كل بد!

حديث الصيدلي مع زوجته

ـ ليس عندي معطف لائق. لا أستطيع الظهور أمام معارفي. كم بقي علي أن أعيش هكذا؟
ـ لا تبكي يا عزيزتي، يا حياتي. . . هلا فهمت أن بيع الأسبيرين والكينا لا يدر ربحاً. يجب الحصول على الأدوية الأجنبية المفقودة والغالية.

وحينـذاك سوف ترين كم سأكسب من مال. فكـل إنسـان ـ عملياً ـ مريض. لكـن ليس لدى الجـميع طبيب جيد، قادر على اكتشـاف مرضهم، وكتـابة الوصفة، وإرسالهم إلينا في الصيدلية. إذا ما توقف الناس عن المرض إذن لأصابنا الافلاس نحن والأطباء... إن بلادنا تسـير نحـو الهـلاك... لا تبكي يا حبيبتي. إن قلبي طيب. ولكن دمـوعـك تجعلني إنسـانـاً آخـر. إن عاجـلاً، أو آجلاً سوف تتحسن الأحوال، ويقف أمام صيدليتنا طابور طويل من المرضى والوصفات في أيديهم. هلا صبرت قليلاً يا حبيبتي. فعما قريب سيبتسم لنا الحظ.

حديث الطبيب مع زوجته

ـ إنني زوجة طبيب، لكن ما الخير الذي رأيته منذ أن تزوجتك؟ أسفي على شبابي وجمالي.

ـ لكن يا عزيزتي...

ـ كل شيء أصبح ممقوتاً...

ـ لا تبكي، لا تعـذبيني. صدقيني أنـه منذ أسبوعين لم يدخل عيادتي للفحص زبون ـ عفواً ـ مراجع لا بأس به. بل يأتيني من هب ودب. بجيوب فارغة. مرسلين من الجمعيات الخيرية. إن بمقدوري معاينة مئة مريض في الـيوم. لكن من أين لي بهم ـ الأغنياء؟ إنهم لا يأتـون ـ حقيرون لا يمكن أن أجرهم بواسطة البوليس.

إن دمـوعـك تجعل قلبي ينفطر، فلا تبكي. طيب إن المرضى الأغنياء لا يأتـون. لو لم أكن أذهب إلى عيادتي يومياً إذن لصـدأ قفل

الباب. آه من لي بمريض غني واحد. الأفضل أن لا يكون معافى جداً، ولا يحتضر تماماً. إذن لكنت قد شفيته، أما هو فكان سيشكرني بنشر إعلان في الجريدة. دعاية رائعة. لقد خطر لي أن أقوم أنا نفسي بنشر إعلان باسم أحد المرضى الوهميين.

كوني صبورة يا حبي، فالصبر يحرك الجبال. ففي أحد الأيام سيطرق الحظ الكبير بابنا. لست بحاجة إلى مرضى فقراء، ليأتني مريض واحد فقط. المهم أن يكون غنياً.

حديث المحامي مع زوجته

ـ أنا ذاهبة إلى بيت أهلي. وداعاً.

ـ انتظري يا عزيزتي، لا تعصبي.

ـ كفاية. ما الذي فعلته كزوج من أجل هنائي؟ ألا تذكر وعودك حين كنت لاتزال تهم بأن تصبح محامياً؟ إنني أرثي لحالي. فهل أنا أسوأ من الأخريات؟

ـ لا تعذبيني. لقد نسيت حبنا العظيم بسرعة...

ـ بالحب وحده لا يشبع الإنسان.

ـ عزيزتي! منذ عدة أيام لم يدخل مكتبي زبون واحد. لا مدع ولا مدعى عليه. إن الأحوال ولا أسوأ. ماذا جرى للناس لست أفهم. فقد توقفوا عن النصب والاحتيال والقتل. انني محام في القضايا الكبيرة. من لي بدعوى تستاهل عن توزيع الأرض بدلاً من ألف من عمليات الزواج والطلاق ـ إذن لكان كل شيء على مايرام. ليس بالأمر السيء أن تحصل

على دعـوى ما تدر مليونـاً. وحينـذاك سوف تتحـدث عني الجـرائد. وسأصبح محامياً مشهوراً ـ وستعيشين كما الأميرة، كما الملكة نفسها. . .

ـ وما الذي يجعل الملكات أحسن مني، أم أن جباههن فضية؟

ـ لم أقل هذا. أعرف أنك تستحقين أروع شيء. . لكن ليس عندي زبون. . . وبماذا يتميز عني أولئك المحامون، الذي يجنون الملايين؟ أم أن لديهم زوجـاً إضـافياً من العيون والآذان؟ لقـد فرغت من نصب شبـاكي، وبقي أن أنتـظر العثـور على الغنيمـة. . . انتظري قليلاً يا عزيزتي. . . لا تبكي. . . لا تمزقي لي قلبي. . . إن دموعك كما حبات اللؤلؤ، فلا تذرفيها عبثاً.

كيف جاءت السعادة إلى كل الأعشاش الزوجية

شرع اقطاعي كبير في مقاضاة فلاحي إحدى القرى. فقد راح ـ على أسـاس سنـد شراء، ورثه عن أبيه ـ يؤكد أن كل أراضي القرية تخصه، ويطالب برحيل الفلاحين، الذين ظلوا يستثمرون الأرض بدون أجرة لسنوات عديدة. كان الإقطاعي، وهو أيضاً تاجر استيراد مشهور، وصاحب معمل للنسيج، ينوي إقامة مزرعة حديثة، ذات دخل كبير، ستعود ـ برأيه ـ بفائدة كبيرة على البلاد.

لكن الفلاحين البلهاء لم يستطيعوا أن يفهموا كيف أن الأرض، التي حرثها وزرعها أجدادهم، ملك لشخص دخيل جاء بسند طابو. استأجر الإقطاعي محامياً، وكلفه بمتابعة الدعوى. وقد بدأ هذا عمله بحماسة كبيرة. كان بوسع الإقطاعي، وسند الشراء بين يديه، أن يعتبر

نفسه صاحب كل أراضي القرية. لكن الفلاحين لم يدركوا قوة الورقة، واعتبروا أن الحق إلى جانبهم، فراحوا يقاومون بعناد.

طالت المحاكمة جداً. كان الاقطاعي يظن أن كل الأمور في البلاد تسير ببطء كبير، ولذا فان البلد متخلف. وإذ رأى أن الدعوى قد طالت راح يعصب ـ وحين يدب العطب إلى الاعصاب فان قرحة المعدة تتفاقم. وقد أدى تفاقم قرحة المعدة إلى زيادة نسبة السكر في الدم، وهذا بدوره إلى ارتفاع الضغط. وقصد الإقطاعي الكبير الطبيب، الذي طال انتظاره في عيادته لمراجع يليق بقدرته. بذل الطبيب قصارى جهده من أجل أن لا يموت المريض، ومن أجل أن لا يشفى نهائياً أيضاً. فراح يصف له الأدوية المستوردة الباهظة الثمن. وراح الصيدلي، الذي مل من التجارة بفراشي الأسنان والمعجون والاسبيرين والكينا، يؤمن هذه الأدوية المستوردة الباهظة الثمن، مما أمن له سعادة عشه الزوجي. أما الطبيب، الذي كان يعالج المزارع المشهور في البلاد، فقد ازداد عدد مراجعيه، وأصبح ناراً على علم.

استمرت المحاكمة طويلاً. وفي النهاية كسب المحامي الشاب القضية، وأصبح ـ بعد أن حصل على مبلغ كبير ـ إنساناً مشهوراً وغنياً، وبذلك فقد أمن سعادة عشه الزوجي. وظن أحد الفلاحين، الذين طردوا من الأرض، بسبب غبائه، الذي لا ريب فيه، وجهله، أن حقه هضم، فقتل الغني. ولم يمنعه غباؤه وجهله من تنفيذ هذه الجريمة بكل دهاء وإتقان، فكان الكشف عنها في غاية الصعوبة.

تولى التحقيق المفوض، الذي لم يتمكن من الحصول على أية ترقية في منصبه. واستطاع بفضل عمله ليل نهار بحماسة منقطعة النظير، أن

يكتشف القاتل. حيث كوفىء على ذلك بشهادة تقدير، وقد عجل هذا النجاح في ترقيته في سلم المناصب. وهكذا أمنت السعادة لعش زوجي آخر.

كان أمين التحرير أول من عرف بإلقاء القبض على المجرم، الذي ارتكب الجريمة الغامضة. ولم يكتف بأنه سبق جميع الصحفيين الباقين، بل وكتب تحقيقاً في منتهى المتعة عن القاتل، وقد حصل لقاء ذلك على الجائزة الأولى في مسابقة الصحفيين السنوية، وحصل على ترفيع. وقد أمن بذلك ـ دون شك ـ السعادة لعشه الزوجي.

سر الجلاد كثيراً. فقد ألقى على عنقه الحبل المدهون بالصابون استعداداً لتنفيذ حكم الإعدام، وقد أمن بذلك، بشكل قانوني وشرعي، السعادة لعشه الزوجي...

كما حالف الحظ حفار القبور. فخلال وقت قصير حفر قبرين. وتحسنت الأحوال، وأصبحت الأيام العصيبة في خبر كان. وبدوره أمن الحياة الرغيدة لأسرته.

أصبح مقتل الإقطاعي موضوع المقالات والرسوم وحتى رسوم الكاريكاتور، التي كانت تنشر في مختلف الصحف والمجلات.

وتحت تأثير ما حدث كتب الشاعر، الذي انتظر طويلاً، الحدث العظيم، الذي يهز روحه، كتب ملحمة عن صراع الناس على الأرض. وقد أصبحت هذه الملحمة تحفة خلدت اسمه. وخلال يوم واحد بيعت كل النسخ وعددها بعشرات الآلاف. وفيما بعد ترجمت الملحمة إلى العديد من اللغات. وحقق الشاعر الشهرة والثروة، كما أمن السعادة لعشه الزوجي.

فازت ملحمة نضال الفلاحين من أجل السلطة بأكبر جائزة العام الأدبية. وأقيم على شرف مبدعها حفل استقبال، دعي لحضوره جميع المشاهير في البلاد. بمن فيهم الطبيب، الصيدلي، المحامي، الصحفي، المفوض (وكان قد أصبح نائب رئيس إدارة الأمن). كانت عيون الزوجات تلمع من فرط السعادة والفخار بأزواجهن. وكانت زوجة الشاعر أكثرهن روعة. كانت تهمس في أذن زوجها، وقدح الويسكي في يدها:

ـ إنك يا عزيزي عبقري حقيقي..

ويرد عليها بقوله: إنك تتملقينني يا عزيزتي.

ارتفعت الأقداح، وتردد رنينها. وفي الفترة الفاصلة بين الأنخاب كان الشاعر يقرأ مقاطع من ملحمته. وتختتم الملحمة بالأدبيات التالية:

أيها المناضلون من أجل الأرض ما حاجتكم إلى الأوسمة؟
فقد حققتم المجد، الذي لا يخبو نوره.
وبأحرف مذهبة
دخلت أسماؤكم سفر التاريخ.
إن القلب معكم إلى الأبد.
فليكن دربكم شائكاً، قاسياً وطويلاً
فأنا واثق ـ وهذا ما سيكون ـ أن البلاد ستصحو
ويتآخى الأرانب والذئاب...

كان المستمعون ينشجون، حتى أن الشاعر لم يتمالك نفسه

فدمعت عيناه. وكان أكثر الجميع بكاء المحامي، الطبيب، الصيدلي، الصحفي ورئيس الشرطـة. فقد رفعوا أقداحهم بعيون بللها الدمع. وراحوا يهنئون الشاعر من كل قلبهم.

تعليمات للشوائين على قارعة الطريق

إذا ما أجرينا استفتاء للرأي العام العالمي عن أفضل المؤلفات الساخرة عبر كل العصور ولكل الشعوب، يتضح أن إجمالي ما يوجد حتى يومنا هذا خمسة إلى عشرة كتب كحد أقصى. علماً أن التحفة، التي بودي أن أرويها لكم، يمكن أن تبز أكثر الأعمال الساخرة الموجودة حتى الآن شهرة. ولكن كيف حدث أن هذا المؤلف العظيم حقاً في ميدان الفكاهة لايزال حتى اليوم مغموراً، إنه لشيء يثير الدهشة حقاً.

وعلى العموم فانه لا يخفى على أحد أنه ليس من المألوف عندنا أن تقرأ مختلف الإصدارات الرسمية، بما فيها الوثائق والمحاضر الخاصة بمختلف هيئات الدولة والمؤسسات والدوائر البلدية. ولذا فان هذا المؤلف، الذي يعتبر تعليمات، لم يصل إلى جمهور القراء العريض. أجل إن تحفة السخرية والفكاهة، التي سيدور عنها الحديث لم تقرأ من قبل أي كان، وللأسف. آخ إذا ما وضعنا له عنواناً جذاباً، ونشرناه في غلاف فاقع، وإذا ما زيناه بالرسوم فانني أراهن أنه سينفد حتى في بلدنا الفقير بعشرات الآلاف من النسخ . ومن ثم سوف يترجم إلى العديد من

لغات العالم، وحينذاك فان كل هؤلاء الأوربيين والأمريكيين، الذين لا تهمهم مشاغلنا، والذين لا يرغبون حتى في الاعتراف بنا، ما ان يقرأوا هذا المؤلف المدهش حتى يبدأوا الحديث عنا فوراً.

إنكم تريدون ـ ولا شك ـ أن تعرفوا من هو مؤلف هذا الابداع العظيم. إن من الحرج بمكان أن يكيل المرء المديح لنفسه، لكن أحد المؤلفين، الأصح، المبدعين، الأحد عشر ـ لأن هذه التحفة من إبداع لفيف من أحد عشر شخصاً ـ هو أنا بذاتي شخصياً. وهكذا فان واحداً من أحد عشر جزءاً من هذا المجد المشترك يخصني أنا.

لن يصدق أحد أن بوسعي أنا، عالم البصريات، والذي لا علاقة لي بعمل الكتاب أبداً، أن أكون كاتب مؤلف فكاهي. وعلى العموم فانني، أنا نفسي، استغرب كيف يمكن أن يكون قد حدث مثل هذا. وبالمناسبة فان زملائي العشرة الباقين ليسوا أدباء بدورهم. لكن الذي حدث أننا نحن، وليس غيرنا ـ أصبحنا كتاباً، على الرغم من أننا لم نكن نجيد ربط كلمتين، ولا حتى كتابة الرسائل بشكل لائق. ومع هذا فقد اجتمعنا سوية، وشيدنا تحفة. ذلكم هو فضل العقل الجماعي، القادر على كل شيء، حتى على الفكاهة...

درست أربع سنوات في ألمانيا، ومن ثم سافرت إلى أمريكا، وأصبحت مهندس بصريات. إن البصريات علم واسع جداً، وتكنيك البصريات متعدد الفروع. ولقد تخصصت في مجال حساب الأبعاد البؤرية للعدسات.

لم يكن عدد العاملين في مجال حساب الأبعاد هذا في العالم كله يزيد على ثمانية أشخاص. وفي البداية لم أكن أتصور حتى وجود فرع

كهذا في علم البصريات.

وكنت منذ الطفولة أخلط بين علم البصريات هذا وبين أحد أطباق الطعام الأرمنية، فكانوا يسخرون مني أبداً. لكن مدرسي لاحظوا، فيما بعد، أنني أتحلى بمهارات فائقة في علم البصريات هذا. وهكذا فقد أصبحت واحداً من ثمانية اختصاصيين في هذا المجال. كنت الأكثر شباباً بين البصريين الثمانية هؤلاء. ويأتي بعدي زميلي ذو الثامنة والستين عاماً، والذي كان يزيدني تسعة وأربعين عاماً. ولذا فقد كانوا يطلقون علي في العالم العلمي اسم «الصبي البصري»، وكنت أفخر بهذا اللقب لأنه كان يجعل اسم بلادي مشهوراً. ولقد حظيت أبحاثي العلمية على الميدالية الذهبية مرتين. كما أصبحت أعمالي العلمية مقررات تدرس في الجامعات العلمية. كنت أدرس وأكسب ثلاثة آلاف دولار في الشهر.

إذا كنتم لم تفهموا معنى حساب الأبعاد البؤرية للعدسات فانني أوضحه لكم بكلمتين: كنا نقوم بحساب العدسات للتلسكوبات المخصصة لكشف التلألؤ، الذي لا يرى بالعين المجردة، للنجوم التي تبعد عنا عدة ملايين من السنوات الضوئية.

بعد أن أنهيت تحصيلي العلمي في أوربا وأمريكا، وقدمت الامتحانات النهائية، طالبت حكومتي بعودتي إلى تركيا لتأدية «الخدمة الالزامية»، كما قيل لي. ومن البدهي أن الجمعية العلمية، التي كنت عضواً فيها، والجامعة، التي كنت أدرِّس فيها، لم ترغبا في التخلي عني. حتى أنهما أرادتا أن تدفعا البدل النقدي لدولتي فتجعلاني بذلك في حل من «الخدمة الالزامية».

لكن هنا تدخل والدي، الذي ما إن سمع بهذا كله حتى كتب لي رسالة قاسية جداً.

فقد كتب يقول: «إذا كنت ولدي، دمك من دمي. ولحمك من لحمي. فان عليك أن تعود على جناح السرعة إلى الوطن، وتخدم وطنك الأم. إن شعبنا الفقير قد أطعمك وكساك، وجعل منك إنساناً. بينما أنت لا تريد الآن أن ترد الدين لوطنك، الذي يدعوك، وتتهرب من واجباتك الوطنية. كلا، إذا كنت ولدي فانك لن تتصرف بمثل هذا الجحود! . . .».

وفي رسالته التالية كتب يقول: «اللعنة على هذا الراتب التقاعدي الزهيد، اللعنة على حقوق الأبوة. . .» وهلمجرا. . .

حاولت في رسالة طويلة ـ مطولة أن أوضح لوالدي أن بوسعي أن أفيد وطني، حتى ولـو كنت بعيداً عنـه، لأنني لن أستطيع استخدام معارفي في أرض الوطن.

وكان رد والدي على ذلك صفحتين من الشتائم اختتمها بقوله: «إنك ابن حمار. . . إن جاحداً مثلك لا يمكن أن يكون ولدي. . .».

وقد عمدت للتو إلى الكتابة لصديقي الاسطمبولي، آملاً في أن يساعدني في تبديد شكوكي، واختيار القرار المناسب.

«إن وطنك هو الذي يحتاج إليك. وليس أمريكا. وللحقيقة أقول أنني، وأنا أعرف مشاعرك الوطنية، دهشت لرسالتك» ـ ذلكم كان رد صديقي.

كنت في حالة من الضياع التام حين وردتني رسالة من والدتي: «ولدي لقد أصيب والدك بالشلل، لقد شل جنبه الأيمن. إنه يراك في

نومه . . . ».

فأية أبراج وعدسات وبصريات بعد هذا ـ لم أعد أهتم بذلك، وهكذا فقد تخليت عن كل شيء، وعدت إلى الوطن.

كنت أشعر بقوى غير عادية لدي، وكنت على استعداد لأن أجاري أطلس الأسطوري فأحمل المعمورة كلها على ظهري. وكان يخيل إلي أن آخذ تركيتي الحبيبة وأرفعها عالياً، كما ترفع الأثقال، إلى أن أبلغ بها النجوم بالذات.

على مدى شهرين ظل الموظفون من الهيئات المسؤولة يقررون أين يمكن أن يستخدموني. وقد ملوا من طلباتي لتأمين عمل، لدرجة أن أحدهم، وهو سيد مشغول جداً، قال لي:

ـ إننا نفكر يا ولدي، نفكر. . . فأنت عالم، ونحن سنعثر لك على مكان بالطبع. فلا داعي لأن تأتينا باستمرار وتضايقنا. فأنت حين سافرت لم تسألني بماذا ستتخصص. سافرت بنفسك ـ وبنفسك أصبحت اختصاصياً بالتلسكوبات. ولست أنا من نصحك بأن تصبح هذا التلسكوبي إياه. لست أنا. والآن ما العمل، قل لنا من فضلك، آه؟ هل تأمر بأن نفتح لك معمل تلسكوبات؟ الله، الله! إن رأسي ينفجر. كان بإمكانك أن تصبح هناك طبيباً، أخصائياً بأمراض الفم، كيميائياً، مهندساً، وهل المهن في الدنيا قليلة! لكن لا، ركبت رأسك، وأصبحت معلماً بالتلسكوبات، الشيطان وحده يعرف. . .

لقد كنت أشعر بالحرج لدرجة أنني رحت أتمتم:

ـ إنك على حق يا أفندي. . .

ـ حين نعثر على عمل مناسب سنخبرك برسالة ـ قال لي الموظف مودعاً.

وفي هذه الأثناء قال لي أبي:
- إنني أعيش أيامي الأخيرة، بودي أن أفرح بأحفادي. سأزوجك، وحينئذ يمكن أن أموت.
- لكنني مازلت بدون عمل، ثم إنه لا مال لدي. فكان رده على ذلك:
- لقد درست في أمريكا، وللزواج بإنسان مثلك تقف الفتيات في الطابور...

اختاروا واحدة من هذا الطابور، وزوجوني بها، بما يشبه الاكراه. وهكذا فقد جلسنا كلنا على الراتب التقاعدي لوالدي المسكين. ولم تتأخر زوجتي طويلاً، هوب، وكل شيء جاهز - حامل...

أخيراً عينوني في أحد معامل النسيج، التابعة للدولة. جربت أن أحتج بأنني لا أفهم شيئاً في هذه الأقمشة والخيوط. لكنهم يقولون لي:
- إنك على أية حال خبير - مهندس - ومهما كان فانك تفهم الأمور أفضل من الموجودين...

بدأت العمل، ورأيت أن الراتب وحده لا يكفي، فخطر لي أن أعرج على صديقي، الذي سبق أن كتب لي: «إن وطنك، وليس أمريكا، هو الذي يحتاج إليك». وكان قد أصبح مستشار البلدية.
- اسمع يا صديقي! لقد سمعت منك، وعدت إلى الوطن. لكن ليس معي المال حتى لدفع أجرة الشقة، ولذا فان صاحبها سيتقدم بشكوى إلى المحكمة! إنني عائد إلى أمريكا...
- كلا - رد صاحبي، مستشار البلدية - إن عليك أن تفيد بلادك.
- لكنني لست أرفض. دعهم يستخدموني. تفضل، ها أنا وها هي بلادي.

ـ طيب، طيب. انتظر قليلاً، وسأعثر لك على عمل، براتب جيد.

وبالفعل فبعد ثلاثة أيام اتصل بي صاحبي:

ـ لقد وجدت لك عملاً، يمكنك أن تبدأ مع مطلع الشهر.

وأسأله: ـ وما هو هذا العمل؟

فيرد: ـ إنه بالطبع ليس حسب اختصاصك. لكنك سوف تحصل على نقود جيدة. الواقع أن لدينا في البلدية مكانين شاغرين، في إدارة المقابر، وفي إدارة التنظيف، فاختر أياً منهما.

ـ اسمع، هلا تخليت عن المزاح...

ـ لكنني لست أمزح ـ رد صديقي ـ بالمناسبة إن العمل في إدارة المقابر أسهل.

وقلت لنفسي: لست أفقه شيئاً، لا في معمل النسيج ولا في إدارة المقابر. إذن فسنعمل في مجال المقابر.

كان مكتب مدير المقابر في البلدية مؤثثاً بشكل جيد: خزانة قديمة، طاولة، طربيزتان، وثلاث كراسي. كنت أجيء إلى هناك كل صباح، وأجلس دون انقطاع، حتى بدون استراحة الغداء، الذي لم يكن موجوداً.

حين تسلمت راتبي الأول توجهت ساخطاً إلى مستشار البلدية مباشرة.

وأقول له: اسمع. حين كنت أتقاضى ألف ليرة في معمل النسيج لم أكن أستطيع سد حاجاتي، فماذا سأفعل الآن بالليرات الثمانمئة؟

ـ لا تهتم براتبك ـ يقول لي المستشار ـ لأنه رمزي. حين تصبح عضواً في اللجنة سوف تقبض مبالغ كبيرة.

وأسأل: وما هي هذه اللجنة؟

ـ قد نحتاج إلى تصوراتك في مجال اختصاصك.

وكدت أرقص فرحاً «أخيراً سأكون نافعاً لوطني».

وفي صباح أحد الأيام وجدت على مكتبي ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة، تحمل توقيع رئيس البلدية. كانت على الأرجح النسخة الثامنة، أو التاسعة، لأنه لم يكن بالامكان تمييز الحروف عليها. رحت أسأل، فاتضح لي أنه كتب فيها عن تعييني عضواً في اللجنة. كان على أحد عشر مستخدماً في البلدية أن يعدوا «التعليمات الخاصة للشوائين على قارعة الطريق». . .

كان على أعضاء اللجنة الأحد عشر، المكلفين بوضع «التعليمات الخاصة للشوائين على قارعة الطريق»، أن يجتمعوا في مبنى البلدية، في مكتب أعد خصيصاً لمثل هذه الجلسات، وذلك يوم الجمعة.

كنت هناك في التاسعة إلا خمس دقائق تماماً. التاسعة، منتصف العاشرة، العاشرة، لم يأت أحد. . . الحادية عشرة إلا عشر دقائق جاء ـ أخيراً ـ عضو آخر من أعضاء اللجنة. وتعارفنا: وقد تبين أن اختصاصه طبيب، لكنه يعمل في إدارة التموين التابعة للبلدية.

وقلت له: ـ بصراحة إن إعداد التعليمات للشوائين على قارعة الطريق أقرب إلى اختصاصك. أما أنا فباعتباري مهندس بصريات، لا أتصور حتى، ما علاقة ذلك بي.

وقال الطبيب غاضباً ـ عفواً. لكن ما علاقتي أنا بالشوائين على قارعة الطريق؟

فأجبته: ـ إنك طبيب، وتستطيع في كل الأحوال أن تقدم فائدة

في إعداد مثل هذه التعليمات .

ويعترض الطبيب: لكنني طبيب مجبر. فهل للطبيب، الذي يعالج حالات الخلع والكسر، أية علاقة ـ برأيك ـ بالشوائين على قارعة الطريق؟

وفي هذه المرة كنت أنا من غضب. لكن في هذه اللحظة ظهر ثلاثة أعضاء من اللجنة دفعة واحدة، وتعارفنا. أولاً مع العقيد المتقاعد، الذي كان يرأس قسم الكوادر في إدارة الحدائق التابعة للبلدية، ثانياً مع مهندس الديكور، الذي يعمل على ملاك إدارة الكوادر التابعة للبلدية، وحيث كان يحصل على راتبه بانتظام، وأخيراً مع موظف قسم المستشارين الفنيين، والذي عمل قبل ذلك، عشر سنوات طبيب أسنان .

ـ لست أفهم أبداً ـ قلت مخاطباً مهندس الديكور ـ ما هو دوري في إعداد التعليمات للشوائين على قارعة الطريق، إذا كنت أعمل الآن في إدارة المدافن، بينما مهنتي الأساسية هي مهندس بصريات؟ . . .

وقال مهندس الديكور مبتسماً :

ـ إنك ـ على ما يبدو ـ تشارك في عمل اللجنة للمرة الأولى؟

ـ أجل، للمرة الأولى .

ـ أما أنا فانها المرة الثانية . في البداية يعتقد الإنسان أنه لن يستطيع ، وفيما بعد يتبين أنه قادر على كل شيء . فقد كنت ـ على سبيل المثال ـ قبل هذا عضواً في لجنة لوضع «التعليمات لسوق الدواب المحدية عبر المدينة وسيرها في الطريق»، وقد جرى كل شيء على أحسن مايرام ، فلا تخش شيئاً .

عند تمام الحادية عشرة كان جميع أعضاء اللجنة قد حضروا. كنت جالساً بين الطبيب البيطري والفنان.

وقلت مخاطباً البيطري، الجالس إلى يساري:

ـ إن هذه المهمة لا تتماشى مطلقاً مع اختصاصي.

فرد قائلاً: ـ تكفي لمثل هذه الأمور الثقافة العامة. لقد أعددنا الكثير من التعليمات. وقد أصبحت كلها سارية المفعول، بدون أية تعديلات.

ـ هل يعقل أن هذا صحيح؟ ـ تساءلت بدهشة، دون أن تكون لدي نية التشكيك بصحة كلام جاري، لكنه غضب بشكل فظيع.

ـ ماذا تعني بسؤالك؟ ـ صاح البيطري ـ إنني وزملائي الجالسين هنا كلنا اختصاصيون كل في مجاله. فهل تعتقد أننا لن نتمكن من وضع التعليمات للشوائين على قارعة الطريق؟

لذت بالصمت، غير راغب في الدخول في الجدل مع البيطري الحساس.

في هذه اللحظة بدأ الكلام العقيد المتقاعد الجالس قبالتي.

ـ الزملاء المحترمين! آمل أن لا تكون هناك معارضة إذا ما اقترحت، حسب التقليد، اختيار عاطف بيه، الذي نكن له جميعاً كل الاحترام، رئيساً للجنتنا.

وعاطف بيه ـ كما كنت أعرف ـ يعمل موظفاً في البلدية منذ واحد وعشرين عاماً. وهو الآن ـ كما يقول ـ رئيس قسم في إدارة تنظيف المدينة وتحسينها.

ولست أدري لماذا وجه مدرس الفلسفة القديمة، والذي يشغل

حالياً منصباً في قسم مصلحة المياه، كلامه لي بالذات، لكأن لا أحد في المكتب غيري :

ـ ألن تكون لديك أية اعتراضات يا أفندي؟

ـ كلا، كلا يا أفندي ـ أجبت على عجل ـ إنني مهندس بصريات، أعمل في إدارة شؤون المقابر، فأية اعتراضات يمكن أن تكون لدي؟

ـ إذن فأنت تعترض على أن يكون عاطف بيه رئيساً لنا؟

وصحت قائلاً : أبداً يا أفندي! وهل لي أي قرار هنا؟

ـ إنك على كل حال جديد . . .

وتابعت بسرور ـ لا بل إنني أبارك : فليكن عاطف بيه أو غيره، إنني موافق بشكل تام وكامل.

قال عاطف بيه. موجهاً كلامه للحضور:

ـ أيها السادة. كما نعرف (أما أنا فلم أكن أعرف شيئاً) فان نشاط الشوائين على قارعة الطريق داخل المدينة محظور ، استناداً إلى قرار البلدية، منذ عهد بعيد جداً. لكن نظراً لعدم كفاية كوادر شرطة البلدية، وكذلك نتيجة التوسع المتزايد والسريع لحدود المدينة، وما ينجم عن ذلك من عدم القدرة على القيام بالمراقبة اللازمة، وبسبب تفاقم البطالة أيضاً، فان عدد الشوائين على قارعة الطريق يزداد يوماً بعد يوم، ويعرقل نشاطهم الحركة في شوارع مدينتنا، ولم يعد بالامكان التصدي لهم. وانطلاقاً من هذا دعا فخامة السيد رئيس البلدية خادمكم المطيع إليه، وأعلن : «حسب المعطيات الموثوقة، الواردة فان بلديتنا غير قادرة على مكافحة الشوائين على قارعة الطريق، الذين أخلوا بحظرنا. ولذا فان علينا أن نقوم من كل بد بوقف أعمالهم الاعتباطية، وفرض رقابة

صحية وغيرها على نشاطهم، وتنظيم قواعد التجارة في الشارع إلى آخره وهلمجرا. وانطلاقاً من التصورات الآنفة الذكر فانني آمر بوضع التعليمات المناسبة». ولهذا فاننا، أيها السادة الأكارم، قد اجتمعنا من أجل وضع مثل هذه التعليمات...

كان عاطف بيه يتحدث وكأنه يملي وثيقة رسمية، منسقاً الكلمات، وناشراً النقاط والفواصل، وهو ينطق، بصوت رتيب، بالجمل الطويلة، التي كان يصعب إدراك مغزاها أحياناً.

ـ أعتقد أن المسألة واضحة. لكن علينا أن نقوم بتهويتها ـ بالشكل المطلوب ـ عبر عن رأيه مهندس الغابات، الموظف في دائرة الضرائب.

لم أفهم ماذا تعني كلمة «تهويتها» ولذا فقد سألت الفنان الجالس إلى جانبي، والذي تبين لي أنه موظف في إدارة الصحة:

ـ عفواً. ما المقصود بأن علينا أن نقوم بتهويتها؟

فرد، وهو يبتسم:

ـ إن هذا يعني أن علينا أن نقوم بالقيل والقال والثرثرة بلا مكيال بخصوص الشوائين على قارعة الطريق.

وإذ رأى الفنان نظرتي الحائرة، أوضح قائلاً:

ـ طيب سوف نجلس، ونثرثر عن شوائي الشوارع هؤلاء. وسيقوم كل منا بقول ما يعرف عن ذلك. ومن ثم نضع التعليمات من كل ما قيل. أيها السادة ـ قال الفنان مخاطباً المجتمعين ـ أعتقد أن القضية واضحة.

وحينذاك نظر عاطف بيه، رئيس اجتماعنا، إلى الساعة وقال:

ـ أرى ضرورياً الإعلان عن استراحة الغداء، على أن نتابع مداولاتنا حول هذه المسألة في جلسة المساء.

وصاح العقيد المتقاعد، الذي يمثل في الجلسة دائرة الحدائق، بسرور:

ـ موافق، ثم نهض عن مقعده.

وصاح عاطف بيه، في اثر أعضاء اللجنة المندفعين نحو باب الخروج.

ـ أيها السادة! إن جلستنا المسائية ستبدأ في الساعة الثالثة، أي في الخامسة عشرة بالضبط.

وقال المجبر، الذي يعمل في إدارة التموين: لا بأس إذا ما تأخرت قليلاً. إنني أؤيد مسبقاً كل القرارات، التي سيتخذها زملائي، ومع ذلك فسأحاول من كل بد حضور الجلسة.

تفرق أعضاء اللجنة، وهم يتحدثون بمرح. وقد خرجت في أعقابهم، وأنا مكتئب، وغارق في التفكير.

بعد الغداء، وحوالي الساعة الرابعة، اجتمعت اللجنة أخيراً بعدد أقل.

ـ أيها السادة ـ بدأ عاطف بيه ـ إن نشاط الشوائين على قارعة الطريق داخل حدود مدينتنا، والذي لا يضبطه ضابط. يشكل لوحة رديئة للاخلال بقواعد الصحة ومخالفة علم الصحة. وانطلاقاً من ذلك فان من الضروري جداً إجراء التنظيم اللازم في صفوف الشوائين عن طريق وضع تعليمات بلدية.

وعلق مهندس الديكور، ممثل إدارة الكوادر التابعة للبلدية:

ـ على الأرجح أننا تأخرنا قليلاً، فقد كان يجب وضع هذه التعليمات منذ عهد بعيد...

وقاطعه العقيد المتقاعد، ممثل إدارة الحدائق:

ـ إنك على صواب تماماً يا سيدي الكريم، لكنني أعتقد أيها السادة أن ناحية بالغة الأهمية غابت عن بالنا.

أثارت هذه البداية العملية اهتمامي. حتى أنني أحسست بالاعجاب بالعقيد، وتحولت إلى آذان صاغية. وأضاف العقيد المتقاعد، بعد أن أصم آذان زملائه بسعاله الرعدي:

ـ من البدهي جداً أنه كان من الضروري منذ عهد بعيد وضع هذه التعليمات وغيرها من التعليمات المماثلة الأخرى. لكن اسمحوا لي أن أشير إلى أنه من أجل حل مثل هذه المسائل على المستوى المعاصر، أي على مستوى الحضارة الغربية المعاصرة، كان لا بد لنا بالدرجة الأولى من إعداد كوادرنا الوطنية من الانتيليجينسيا. لم يكن إعداد هذه الكوادر بالأمر السهل أيها السادة. لنأخذ على سبيل المثال الزملاء، المجتمعين هنا: إن كلاً منا أيها السادة قد درس اختصاصه في أوربا أو أمريكا. أو، عفواً، على سبيل المثال، لقد كنت، أنا محسوبكم، معاون الملحق العسكري في بغداد. بعد إذنكم منذ عشر سنوات كان يستحيل إطلاقاً حتى جمع عشرة مفكرين متعلمين مثلكم، من أجل إعداد تعليمات من هذا النوع. نعم، بالمقارنة مع الماضي فان بلادنا قطعت ـ أيها السادة ـ شوطاً بعيداً نحو الأمام...

ـ دون أدنى شك ـ صاح البيطري، الذي يمثل في اللجنة إدارة البلدية لشؤون الطباعة، ومن ثم التفت نحوي، ونظر إلي لكأنني أردت أن أقول شيئاً، أو أعترض، وأضاف متوعداً: ـ إنك من هذا الرأي، أليس كذلك؟

ومن الارتباك، أو لعدم فهمي عما سئلت، استوضحته بوجل:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد ـ قال البيطري ـ معرفة رأيك. ماذا تعتقد هل قطعت بلادنا شوطاً بعيداً نحو الأمام بالمقارنة مع الماضي؟

ـ طبعاً. كيف لا. بعيداً طبعاً. لا بل وبعيداً جداً. . .

ـ أيها السادة ـ تابع العقيد ـ لقد ولت العربات إلى غير رجعة. ففي اسطمبول اليوم أصبح الترام يتراجع أمام التريللي المندفع. . .

في هذا الوقت ظهر المجبر، وخلع معطفه على عجل، ثم سأل، وهو يجلس:

ـ أرجو المعذرة، كنت مشغولاً، ولذا تأخرت. هل فرغتم من مناقشة المسائل الجوهرية؟

ـ لاتزال المداولات في بدايتها ـ رد مهندس الغابات، موظف إدارة الضرائب.

ـ وهكذا يا سادة ـ بدأ عاطف بيه من جديد ـ فان القضية واضحة. والآن. . .

ـ دقيقة ـ قاطعه البيطري ـ بعد إذنكم هناك ناحية أخرى في غاية الأهمية. . . فنحن ـ كما أظن ـ لم يسبق لنا حتى الآن أن عالجنا قضية الشوائين على قارعة الطريق بشكل جدي. وللأسف أننا نتعرف عليها، عموماً للمرة الأولى هنا بالذات، في جلسة اللجنة. إنهم ينتظرون منا تعليمات بخصوص الشوائين على قارعة الطريق. إنني أسمح لنفسي، أيها الزملاء المحترمون، أن أشير إلى أن هذا الأمر ليس بالسهل أبداً. ولا أخطيء إذا قلت أن هذا الموضوع مجهول بالنسبة لنا. وأنا من

ناحيتي، يجب أن أعترف أنني لم أدرس قضية الشوائين على قارعة الطريق من وجهة النظر العلمية. ولا أخفيكم أن لدي معارف واسعة بخصوص الشوائين في المطاعم، لكن الشواء، الذي يبيع متجولاً، فهذا لعمري نوع آخر تماماً من النشاط. . .

وكان يبدو وكأن أي رأي لا يهمه باستثناء رأيي أنا، ولذا فقد خاطبني أنا بالذات بقوله:

ـ أليس كذلك يا زميلي المحترم؟

ـ أجل. . . هكذا على الأرجح ـ همهمت مجاوباً. وقد جاءني سؤاله على حين غرة.

ـ وانطلاقاً من هذا ـ تابع البيطري ـ لا بد أن يستعد كل منا لهذه المسألة. فمثل هذه التعليمات لا يمكن أن تعد ارتجالاً، أو سلقاً، كما يقال. ولذا فانني أرجوكم أن ندع هذه المناقشات غير المؤهلة. إن كل ما يمكن أن يخطر ببالنا الآن سيكون رأياً سطحياً بالموضوع.

وتدخل مهندس الغابات:

ـ لقد تطرقنا إلى قضية في غاية الأهمية. والله يشهد أننا كلنا ـ في الحقيقة ـ جهلة بالنسبة لهذا الموضوع.

ـ إنك أقدم مني بكثير ـ قال المجبر مخاطباً البيطري، أقصد أن أقول أنك بدأت المشاركة في اللجان قبلي. لكن ماذا تعني من فضلك بالآراء السطحية؟ كلا يكفي أيها السادة. ماداموا ينتظرون منا وضع تعليمات فقد كان علينا، قبل أن نجتمع، أن ندرس هذه القضية.

وهنا تدخل رئيسنا عاطف بيه:

ـ أعتقد أن القضية اتخذت في اللحظة الراهنة أطرها الأكثر تحديداً،

وأصبحت أكثر وضوحاً. ولذا فان علينا المرة القادمة أن نجتمع ونحن أكثر إعداداً ـ كما يقال.

ـ فكـرة صائبـة جداً. أليس كذلـك يا سادة؟ إن علينا أن نبحث في الأدبيات وغيرها.

ـ وهكذا ـ تابع عاطف بيه ـ اليوم هو الجمعة، وغداً السبت. وعملياً فان يوم السبت عندنا هو نصف يوم عمل، وبعده يأتي الأحد... حتى الاثنين يجب على كل منكم، أيها السادة، أن يستعد بحيث يكون لديه رأيه السديد بهذه المسألة، ويوم الاثنين، بعد الغداء، في حوالي الساعة الرابعة... نعم في السادسة عشرة تماماً، نلتقي هنا.

ومـن ثم كتـب عاطف بيه بخط جميل ومنمق، كما يكتب على غلاف المجمـوعة الأدبية: «نحن الموقعين أدناه، الخبراء الأحد عشر، أعضاء لجنة البلدية، المشكلة لوضع تعليمات خاصة للشوائين على قارعة الطريق، والمؤلفة من... توصلنا في اليوم الفلاني، نتيجة المناقشات، إلى ما يلي...».

وقعنا جميعنا تحت هذا الضبط وتفرقنا.

أمضيت ليلتي قلقاً. وقد رأيت الكوابيس، لكأنني وقعت في فخ، ولست قادراً على الخـروج. استيقـظت، والعـرق البـارد يتصبب من جسـدي، ورحت أفكـر في كيفية الاستعـداد، ودراسة مسألة شوائي الشوارع. وفي الصباح التالي توجهت إلى صاحبي، مستشار البلدية.

ـ اسمع يا صديقي ـ قلت له ـ هذا الأمر ليس من اختصاصي، اعذرني، فلن أتمكن...

ـ وما المانع؟ سأل وهو يبتسم.

ـ لأنه لم يسبق لي أبداً أن درست قضية الشوائين على قارعة الطريق، وليس لدي معارف في هذا الميدان أبداً. حتى أنني لم آكل اللحم المشوي من باعة الشوارع ولا مرة. فكيف أستطيع أن أضع التعليمات لهم؟ إن بمقدوري أن أساعد البلدية في وضع التعليمات في مجال المناظير المقربة «النظارات» التيليسكوبات. ثم أنني ـ والحق يقال ـ لا أحب اللحم المشوي...

واعترض صاحبي:

ـ إنك تبالغ في تعقيد القضية. مهما كانت الأمور فان بلديتنا بحاجة لوضع هذه التعليمات. الخبراء هم الذين يضعونها بالطبع. أم أنك تظن أن بالامكان تكليف من هب ودب بمثل هذه المهام؟ بالطبع لا. وإذا ما كلفنا خبراءنا ذوي التعليم العالي بوضع التعليمات فان بالامكان الحصول على مناقشات بالغة التأهيل.

ـ هذا صحيح ـ كان ردي ـ لكنك تعرف أن ما درسته في أوربا وأمريكا هو علم البصريات.

ـ اسمع، أعرف جيداً أن أحداً في أوربا لا يبيع الشواء على قارعة الطريق. وهل علينا ـ برأيك ـ أن نرسل إلى أوربا وأمريكا شخصاً يعلمهم ذلك، أم أنك تريد أن نأتي من هناك بالخبراء في مجال بيع الشواء على قارعة الطريق؟ لقد تكونت عندنا ـ والحق يقال ـ عادة سيئة: فما ان يحدث شيء حتى نستدعي خبيراً من الخارج. حتى بدون ذلك ليس لدينا من النقود ما يكفي. لكننا لا نتورع عن تبذيرها لتذهب أدراج الرياح... وهكذا، دعك من المبالغة في تصوير المصاعب... فأنت مواطن، إنسان متعلم، ويجب أن تعرف ذلك جيداً. هل فهمت؟...

لا يجوز القـول أن صاحبي كان مخطئاً تماماً. ففي كل الأحوال الأفضل أن نقوم نحن بوضع هذه التعليمات على أن يضعها أناس عابرون.

ما إن وصـلت الـبيت حتى رحت أنقب في الكتب، ودائـــرة المعارف، وأرمم معلوماتي في ميدان اللحم المشوي والشوائين.

مساء الأحد أصابني تلبك المعدة، لأنني أمضيت النهار كله في دراسـة المسـألة: طفت أرجاء المدينة، تحدثت مع الشوائين الجوالين، واشـتريت كل ما كانـوا يتاجرون به والتهمته. إنهم يتاجرون باللحم المشوي، والكباب والكفتة في أغلب الحالات، حيث يقدمون ذلك على شقفة خبز، أو في صحن من الألمنيوم، وفي بعض الأحيان يصرون ذلك في ورقة من الجريدة. ولم يكن لدي أدنى تصور بماذا يصر تجار الشارع بضـاعتهم، ولم أكن أعـرف أنهم يرشـون عليهـا البصـل الأخضر أو البقدونس. وعلى العموم فان معدتي المسكينة تعرفت في هذا اليوم على كل أنواع البضاعة، التي يتاجر بها الشواؤون على قارعة الطريق، وبقيت حتى صباح اليوم التالي أعاني من فيض المعلومات.

وبعد ظهر الاثنين اجتمعنا في الجلسة من جديد.

ـ هل الجميع حاضرون؟ سأل عاطف بيه.

أحصينا عدد الحضور فتبين أن عددنا عشرة، بينما كان لا بد من أجل وضع التعليمات من أحد عشر شخصاً. وقرأ عاطف بيه التفقد.

ـ يبدو أن رئيس إدارة الامداد بالطاقة غائب؟...

ولاحظ أستاذ الفلسفة القديمة سابقاً، رئيس إدارة المياه حالياً:

ـ إن الزميل الذي ذكرتم قد تغيب عن الاجتماع السابق أيضاً...

وقال طبيب الأسنان، ممثل قسم المستشارين الفنيين:
- إن زميلنا مريض. ولديه تقرير طبي. ولذا فهو لا يستطيع الحضور.
- يجب العثور عليه لكي يوقع الضبط والمحضر - قال عاطف بيه مذكراً.
- هذا ليس مهماً - قال طبيب الأسنان - سأوقع عنه.
- كلا، كلا! أيها السادة لا يجوز أن يكون في هذا الأمر أي إهمال، لأنه قد يحدث سوء تفاهم، كما عند وضع سجل المخصصات - اعترض عاطف بيه، ومد لطبيب الأسنان بتقرير الجلسة السابقة، فقام هذا بالتوقيع نيابة عن الزميل الغائب.

وهمس مهندس الغابات من إدارة الضرائب، والجالس إلى جانبي، في أذني قائلاً:
- هكذا دائماً: منذ البداية يتملص من العمل المشترك.
- من تقصد أيها الزميل المحترم؟ - سألت:

فرد مهندس الغابات:
- هو نفسه، الذي لا يحضر الجلسات. فهذا الموظف كان في السابق لاعب كرة قدم. ولما كان لاعب كرة مشهوراً فقد عينوه في إدارة الطاقة. وأنت تعرف بنفسك، فماذا يفقه لاعب الكرة في الكهرباء؟...

فأجبته:
- إنه يفقه في ذلك بقدر ما يفقه محسوبك في الشوائين على قارعة الطريق.

فاعترض مهندس الغابات:
- لكنك يا زميلي العزيز في كل الأحوال تحضر كل جلساتنا، أما هو فلم نر خلقته.

رن عاطف بيه الجرس، وطلب من الحاجب أن يجلب لنا القهوة

والشاي. ولما كانت معدتي لاتزال مرتبكة فقد طلبت المياه الغازية. وقام الرئيس بتسجيل ذلك، لأن كل نفقات اللجنة كانت تحت إشرافه.

ـ أيها السادة ـ صاح عاطف بيه مفتتحاً الجلسة ـ يطلب من الحضور الادلاء بآرائهم.

ـ سأتكلم أنا بعد إذنكم ـ طلب الكلمة العقيد المتقاعد، ممثل إدارة الحدائق.

ـ تفضل يا سيادة العقيد ـ قال عاطف بيه.

ـ لقد درست قضية الشوائين على قارعة الطريق ـ بدأ العقيد ـ حسب تجربتي ومعارفي. أيها السادة الأكارم! حين قمنا، المرة الماضية، بوضع «تعليمات لعربات الخيول» ساعدت اقتراحاتي ـ كما تذكرون ـ في تحريك هذا الأمر من النقطة الميتة، وحققنا التقدم فوراً. وفي هذه المرة أيضاً لدي الاقتراحات التالية: إن علينا قبل كل شيء أن نطبق الانضباط الحازم بين الشوائين على قارعة الطريق. فالانضباط هو أهم شيء بالنسبة للنظام. ولا بد من أجل ذلك من إلزام البلدية، قبل إعطاء الرخصة بتجارة المشاوي، بالمطالبة بإبراز وثيقة مصدقة من شعبة التجنيد تثبت أن المومأ إليه قد أدى الخدمة الالزامية، وهو الآن في الاحتياط. ونتيجة لذلك..

وهنا قاطعه الفنان، موظف إدارة الصحة حالياً:

ـ لكن اسمح لي ـ بعد إذنك ـ أن أسأل. الخدمة الالزامية طيب، لكن ماذا نستفيد من الوثيقة التي تثبت أنه في الاحتياط؟ لا شيء على الاطلاق لأنه غير معروف متى يمكن أن يستدعى المومأ إليه لدورة إعادة التدريب. فبالعض يستدعى بعد سن الأربعين، بينما البعض الآخر لا

يستـدعى إطـلاقاً. فماذا يفعل مواطننا، الذي يريد أن يتاجر بالشواء متجولاً، إذا لم يكن قد استدعي بعد لاعادة التدريب، وهو في عداد الاحـتياط؟ هل عليه أن ينتـظر حتى يبلغ الأربعـين؟ طيب وإذا لم يستـدعوه بالمرة، فهل يعني هذا أنه لا يستطيع طيلة حياته أن يمارس التجارة؟! وهكذا فان أياً من مواطني بلدنا لن يتمكن من الاتجار بالشواء متجـولاً، وهـذا يتنـاقض بشكـل جلي مع بيان حقـوق الإنسان ومع الدستور أيضاً. . .

لقد أعجبتني كلمة الفنان كثيراً ـ لقد أحسن هذا الشاب، كلام سليم. . .

وهنا تدخل في النقاش طبيب الأسنان، ممثل قسم الاستشارات الفنية.

ـ في الســابق كان محسـوبكم طبيبـاً عسكـرياً بأمـراض الفم. لكنني ـ ولـلأسف ـ لا أستـطيع مشـاطـرة زميلي رأيه. فما دخل بيان حقوق الإنسان والدستور هنا؟. . . لا توجد أية صلة على الإطلاق. فما هو القاسم المشترك بين الدستور والشوائين على قارعة الطريق؟ ربما يوضح لنـا الزميل هذه الصلة؟ إن محسوبكم لم يجد في الدستور أية تعليمات بهذا الخصوص.

ـ الزميل المحترم ـ رد الفنان ـ أنا نفسي ضابط احتياط. وإذا ما أردت اليوم أن أمارس تجارة المشاوي متجولاً، فهذا يعني أنني لن أستطيع ذلك فقط لأنني لم أستدع لدورة تدريبية؟

ـ بالطبع لن تستطيع ـ صاح العقيد المتقاعد.

ـ كلا بل أستطيع ـ لم يستسلم الفنان.

ـ طيب جرب ـ اعترض العقيد .
ـ ولسوف أجرب ـ لم يتراجع الفنان .
ـ تستطيع الآن بالطبع ـ تدخل طبيب الأسنان ـ لكن حين سنسجل ذلك في التعليمات سيكون لكل حادث حديث .

وهنا تدخل في النقاش مهندس الغابات :

ـ وأنت أيها العقيد كم خدمت في الجيش؟
ـ وما دخلك أنت؟ ـ سأل العقيد مكشراً .
ـ هكذا، مجرد سؤال . . .
ـ سبعة وعشرين عاماً . . .
ـ وهل استدعوك لدورة تدريبية؟
ـ لا .
ـ في هذه الحالة لا تستطيع أنت أيضاً ـ يا صاحب السعادة ـ أن تمارس تجارة المشاوي متجولاً .
ـ إن الحديث لا يدور عني . . .
ـ بالطبع ، ومع ذلك . . .
ـ هل تريد أن تقول أنه يليق بي أن أكون شواء على قارعة الطريق؟
ـ كلا معاذ الله يا عقيد .
ـ كلا، أرجو أن تجاوب .
ـ عفواً . . .
ـ لا تتجاسر على إهانتي .
ـ ماذا تقول يا عقيد . . .

وهنا تدخل عاطف بيه، الذي أدرك أن الجو قد تكهرب حتى

الدرجة القصوى.
ـ أيها السادة، أعيروني انتباهكم. الآن سوف يعبر زملاؤنا عن آرائهم بهذا الخصوص. ـ ثم نظر إلي ـ أنت، أيها الزميل المحترم، ما رأيك بموضوع النقاش؟
ـ أعتقد ـ بدأت الكلام ـ (عبس العقيد، وقطب حاجبيه، وغرز عينيه في وجهي) الخدمة العسكرية شيء في غاية الأهمية... (ظل العقيد ينظر في عيني دون انقطاع). الخدمة العسكرية واجب مقدس... الخدمة العسكرية هي الواجب الأقدس تجاه الوطن والأمة...

ولم يتمالك الفنان نفسه:

ـ طيب، وهل هناك من هو ضد الخدمة العسكرية؟

وتابعت:

ـ الخدمة العسكرية... ولذا... دائماً... هذا... إن على جميع الشوائين ـ برأيي ـ أن يؤدوا الخدمة العسكرية قطعاً. لكن... ولا بد في نفس الوقت من إلزام جميع الشوائين على قارعة الطريق بأداء الخدمة العسكرية في الاحتياط أيضاً.

ورد العقيد:

ـ صح. الآن ليس لدي اعتراض.
ـ ألم يكن هذا ما اقترحته؟ ـ سأل الفنان.
ـ أنت... إنك باقتراحك تشجع الهروب من الجيش، حيث سيرغب أي كان في أن يصبح شواء...

وقال عاطف بيه مخاطباً المجتمعين:

ـ كما فهمت أيها السادة فأنتم مجمعون على أن الشوائين على قارعة

الطريق ملزمون بأداء الخدمة العسكرية الفعلية، مظبوط؟

كانت الأيدي المرفوعة بود رداً على سؤاله.

ـ أيها السادة ـ تابع عاطف بيه ـ إنها الخامسة ودقيقتان، سوف نتابع مداولاتنا غداً، أما الآن فأعلن نهاية الجلسة.

وقعنا تحت محضر جلسة اليوم. وعن لاعب الكرة السابق، ممثل إدارة الامداد بالطاقة، وقع طبيب الأسنان.

في اليوم التالي كان علينا أن نجتمع في العاشرة.

ومن جديد لم يأت لاعب الكرة الشهير السابق. ومن جديد دفع اقتراح العقيد المتقاعد، الداعي إلى توحيد زي جميع الشوائين على قارعة الطريق، دفع مناقشة المسألة إلى طريق مسدود. وبشكل عام فقد كان الجميع لا يعارضون أن يكون للشوائين زي موحد، لكن العقيد المتقاعد أصر على أن يرتدوه حتى خارج أوقات العمل. وحينذاك اقترح عاطف بيه بدء التصويت، لكن الأصوات جاءت بالتساوي خمسة «مع» وخمسة «ضد».

وقال عاطف بيه:

ـ ليس مصادفة أن لجنتنا مكونة من أحد عشر عضواً، لقد روعي ذلك من أجل مثل هذه المواقف بالذات. لكن للأسف لم يأت زميلنا من إدارة الامداد بالطاقة. وبذلك فقد وضعنا في موقف حرج. فالنتيجة لدينا: خمسة إلى خمسة. ماذا سنفعل الآن؟

واقترح المجبر ـ التمويني:

ـ إنه صديقي القديم. حين كنت أعالجه من الإصابات الكروية كان دائماً يطلعني على أفكاره وتصوراته. إنه ـ كما أعرف ـ ضد الزي الموحد.

سوف أصوت عنه إذا سمحتم.
ـ وأنـا واياه صديقـان أيضاً ـ تدخل طبيب الأسنان ـ لكن اسمح لي بالقول بأنك مخطىء. فكيف يمكن للاعب الكرة أن يكون من خصوم الزي الموحد؟ إنني أسألك لماذا يرتدي كل فريق أثناء مباراة كرة القدم زياً مختلفاً؟ مستحيل أن يكون الرياضي الذي ارتدى زينا الوطني اثنتين وعشرين مرة على مدى سنوات طويلة، من خصوم الزي الموحد.
ـ أرجوك أن لا تناقش مسألة الزي الموحد ـ قال العقيد مهدداً.
ـ لكن الزي الموحد للشوائين المتجولين. . .
بدأ طبيب أمراض الفم مداخلته.
وزعق العقيد:
ـ متجولين، مشاة. . . الزي هو الزي، ولا فائدة من الثرثرة هنا. اخرس.
ـ دعونا نؤجل هذه المسألة حتى قدوم زميلنا الغائب. قال عاطف بيه بلهجة مصالحة، رغبة منه في تلطيف الجو المشحون.
تقدم العقيد بعدة اقتراحات أخرى: بما فيها أن تكون عربات البيع لدى الشوائين على قارعة الطريق ذات نموذج موحد ولون موحد، وأن تبيت هذه العربات ليلاً في مكان واحد تحدده البلدية.
وقال عاطف بيه مخاطباً العقيد:
ـ أيهـا العقيد المحـترم، لسـوف نأخذ اقتراحاتك بعين الاعتبار. لكن بوصفك ممثل إدارة الحدائق ربما تكون لديك بعض الاقتراحات في هذا الجانب بالذات.
ـ طبعاً ـ قال العقيد موافقاً ـ مثلاً: منع الشوائين على قارعة الطريق من

دخـول الحدائق العامة منعاً باتاً. ووضع لوحات على بوابات الحدائق والحدائق العامة يكتب عليها: «ممنوع دخول الشوائين منعاً باتاً».

وسأل البيطري، ممثل قسم الطباعة.

ـ وهل يتعلق هذا بالحدائق الخاصة؟ فهل يستطيعون دخولها بحرية؟

ـ إن حديثنا يدور ـ أيها المحترم ـ عن حدائق البلدية . .

وبتعـابير مسهبة تقدم مهندس الغابات، ممثل إدارة الضرائب، باقتراح حول منح الشوائين أذونات خاصة لنقل المواد الحراجية، وذلك تلافياً لتهريب الخشب والحطب والألواح من الغابة، وتكليف البلدية بالإشراف الصـارم على نقـل هذه المـواد، وكذلك جباية الضريبة من الشوائين على قارعة الطريق عن استخدام الطريق، وضريبة الأراضي، وضريبـة الاستهـلاك، وبـالاضافة إلى هذا كله وضع الرقابة الرسمية والرسوم الجمركية. . .

أما مدرس الفلسفة القديمة، العامل في إدارة الامداد بالمياه، فقد اقترح أن لا يقبل في وظيفة الشوائين على قارعة الطريق إلا حملة الشهادة الابتدائية. وفي ذلك تشجيع للتعليم الابتدائي في البلاد. أما فيما يتعلق بالاقتراحات في مجال الامداد بالمياه فيجب إلزام كل شواء من الشوائين على قارعة الطريق بأن يكون لديه في عربته سطل من الماء على الأقل.

وتدخل مهندس الديكور:

ـ كل شيء مفهوم بخصوص شهادة التأهيل الابتدائي، لكن ما دخل سطل الماء هنا؟ أمن أجل إطفاء نار المشواة؟

ـ لغسل الصحون يا محترم ـ رد الفيلسوف السابق.

ـ لكن الشـوائـين على قارعـة الطريق لا يستخدمون الصحون، فهم

يضعون لحمهم المشوي والكفتة في الخبز مباشرة . . .
ـ إن لم يكن هناك داع لغسل الصحون فليغسلوا أيديهم . . .
ـ اسمع . إذا كان الماء لا يتدفق من الحنفية في المنازل في اسطمبول صيفاً ، فمن أين لنا بالماء للشوائين على قارعة الطريق؟
ـ إذن فالشواؤون برأيك يشتغلون بدون ماء؟
ليسوا بحاجة إلى الماء؟
ـ إن بضاعتهم من النواشف . . .
ـ لكن هذا يعني أن خطر الاشتعال قائم .
ـ اسمع ، إن الماء . . .
ـ كلا ، بعد إذنك . . .
ـ لا تقاطعني . . .
ـ أرجوك أن تسمع كلامي . . .
وأما طبيب أمراض الفم ، الموظف في إدارة التموين ، فقد اقترح إعطاء رخصة الاتجار بالشواء فقط في حال تقديم تقرير طبي ، وخصوصاً صورة بالأشعة للهيكل العظمي .
وسأل البيطري :
ـ إذن فالأحدب لا يستطيع أن يكون شواء على قارعة الطريق؟
ـ يستحسن أن لا يكون .
ـ ولماذا؟
ـ للناحية الجمالية! فمن أجل الحفاظ على جمال المدينة وتطوير السياحة يمنع الحدب والفصعان والكتعان من مزاولة تجارة الشواء .
ـ يا سلام .

ـ نعم يا محترم! إنني طبيب في أمراض الفم. فمن يعرف أحسن، أنت أم أنا؟ دعنا نحترم رأي الاختصاصي. إذا كنت أقول لك أن هذا غير صحيح من وجهة النظر العلمية، فيجب أن تصغي لكلامي. ثم . . . باعتباري أعمل في البلدية، وفي إدارة التموين بشكل خاص، فانني أقترح تحديد المعايير للشوائين لكمية اللحوم وغيرها في البضاعة الجاهزة.

ـ وماذا تقصد بكلمة «وغيرها»؟

ـ هاك مثالاً من واقع عمل شوائي اسطمبول ـ يأخذ هؤلاء الدهاة الخبز اليابس، ويضيفون إليه كمية قليلة من الماء، ويعجنون العجينة التي لا يوجد فيها غرام واحد من اللحم. وبعد ذلك يأخذون العجينة، ويصنعون منها كوستيليتا، يقلونها في الزيت السابق. ويحصلون على الكباب والكفتة لا أشهى ولا ألذ.

ـ قلت «الزيت السابق» أي شيء هذا؟

ـ إن محسوبكم يطلق هذه التسمية على ما تبقى في المقلاة بعد انتهاء القلي فيها. إن هذه البقايا والفضلات تصبح جزءاً لا يتجزأ من المقلاة. وكلما ازدادت كهولة المقلاة كانت الكفتة والكباب أشهى وألذ. إن بعض الشوائين على قارعة الطريق ورثوا المقالي، ذات الزيت السابق، عن أجدادهم. إن محسوبك ـ كما ترى ـ قد درس أسس الصنعة دراسة عميقة.

ـ طيب، لكن كيف يعدون الكباب من لب الخبز وحده، دون إضافة غرام واحد من اللحم؟ هذا مستحيل . . .

ـ نعم . . . قد يبدو ذلك مفارقة، لكنهم يعدونه.

ـ لقد ذقته. ورائحة اللحم تفوح منه بشكل واضح.

ـ رائحة بالضبط! لأن الشوائين على قارعة الطريق لا يصنعون الكباب من أي خبز كان، إنهم لا يأخذون الخبز إلا من تلك الحوانيت المجاورة لمحلات بيع اللحوم. ويمتص الخبز رائحة اللحم القادمة من هذه المحلات. وعدا عن ذلك فانهم يضعون الخبز ليلاً في الخزانة إلى جوار عظام لحم البقر. ولذا فان مهمتنا تكمن في إلزام الشوائين على قارعة الطريق بوضع اللحم في الكباب والكفتة، وهذا ما يجب أن تنص عليه التعليمات.

وفجأة انتعش البيطري من إدارة شؤون الطباعة:

ـ بالمناسبة، إن مسألة اللحوم مسألة في غاية الأهمية...

وأقترح منع الشوائين على قارعة الطريق من صنع الشواء من لحم الخيول، وكذلك من لحم الحمير والبغال، التي تصلهم من المسلخ بشكل غير شرعي، لأن هذا يقود إلى انتهاك تقاليد الصوم عند الإسلام...

لقد حاولت أن أحدثكم باختصار عن طبيعة مناقشاتنا، التي استمرت ساعات، وأحياناً أياماً بكاملها. وطيلة هذا الوقت كانت تعذبني فكرة أنه لن يلبث أن يأتي دوري لأدلي بدلوي في هذا النقاش. في البداية كنت آمل أن ينتهي العمل من وضع التعليمات بسرعة ـ فليس ثمة بيننا خبراء في مجال الشواء ـ ولذا فان كل شيء سيقتصر على كلمات عدة أعضاء في اللجنة، وينتهي كل شيء. لكن أملي خاب، ولم تجر الرياح كما اشتهيت.

فمن أجل أن تستحق تلك الأجرة، التي كانت تدفع لنا يومياً ـ مئة ليرة بالتمام والكمال ـ أمضينا الساعات الطوال يومياً في مناقشة أدق

التفاصيل. وهذا مفهوم: فلم يكن أي منا يريد أن يكسب هذه النقود دون مقابل. ولذا فقد كان كل منا يحاول تقديم أكبر قدر ممكن من البنود تمشياً مع اختصاصه، أو مع مصلحة الهيئة التي يمثلها. كان الصراع مريراً، وكان كل يذود عن حياض مواقعه، ويدافع عن اقتراحاته، وكانت المسائل التافهة جداً تتحول إلى ذريعة لنقاش يستغرق عدة ساعات. فالفنان من إدارة الصحة ومهندس الديكور ـ على سبيل المثال ـ أمضيا يوماً كاملاً في الجدل، حتى بح صوتهما، حول مسألة لون عربات الشوائين على قارعة الطريق، وحجم دواليب هذه العربات.

كنا ندرك أن هذه القضية في غاية الجدية، ولذا فقد كنا نعمل بمنتهى الجد أيضاً.

ولما كنت مستخدماً في إدارة المقابر البلدية من جهة، ومهندس بصريات، من جهة أخرى، فانني لم أتمكن من العثور على أسلوبي في تناول هذه القضية. فإذا ما انطلقت من المقابر فانني لن أصل إلى اللحم المشوي أبداً. ومن يدري فقد تظهر بعض التداعيات غير اللازمة. ولذا فقد بصقت على المقابر، وقررت الحركة عبر خط علم البصريات. تقدمت باقتراح يدعو إلى تجهيز عربات الشوائين بزجاج مكبر يسمح للزبائن بتفحص البضاعة، بشكل أفضل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ـ يثير الشهية لديهم. كما يمكن لزجاج التكبير هذا أن يكون دعاية للبضاعة. وقد اقترحت من أجل ذلك استخدام العدسات المزدوجة التكبير، من الزجاج الصافي، بدون فقاعات وشوائب. وللأسف لم أتمكن من إدخال اقتراحات أخرى في التعليمات، موضوع المناقشة. ولذا فانني مازلت حتى الآن أعتقد أنني لم أقدم ما يوازي المبلغ الذي دفع إلي.

كان أعضاء اللجنة من الجدية في تناول القضية، ومن الحماسة لكسب هذه الليرات المئة بعرق الجبين، لدرجة أنهم نجحوا بعد ستة عشر يوماً من العمل في وضع «تعليمات خاصة للشوائين على قارعة الطريق» من مئة وسبعة عشر بنداً.

كان ذلك عملاً جباراً، لأن كل عضو من أعضاء اللجنة استطاع أن يضمنه كل معارفه وكل خبرته، وكل مهاراته، التي لم يستغلها لدى أداء واجباته الوظيفية. ولذا فقد جاءت التعليمات فريدة من نوعها، موسوعة حقيقية من المعارف التي لا يحتاجها أحد.

حين رويت ذلك لصديقي، مستشار البلدية، قال لي مطمئناً:

ـ كل هذا لا أهمية له. إن الشوائين على قارعة الطريق يعيشون ويشتغلون على هواهم. لكن لا يضر أن تكون التعليمات بين أيدينا ـ كل شيء يمكن أن يستخدم عند الضرورة. هلا نظرت كم هي رائعة هذه التعليمات، إنها تعليمات نموذجية فعلاً.

وهكذا فبعد أن عملنا ستة عشر يوماً وضعنا نحن أعضاء اللجنة الأحد عشر، «تعليمات خاصة للشوائين على قارعة الطريق» مؤلفة من مئة وسبعة عشر بنداً، وقبضنا لقاء ذلك مبلغ ١٧٦٠٠ ليرة مكافأة. لقد تفضل زميلنا لاعب الكرة، من إدارة الامداد بالطاقة، بحضور الجلستين الأخيرتين، وأسعدنا بمناقشاته، ذات الأفكار العميقة، حول أنه لا داعي ـ على الأرجح ـ لانارة عربات الشوائين في أثناء النهار.

وبالمناسبة إذا ما حدث أن أحسست بالكآبة، أو إذا ما شعرت بالسأم الذي لا يحتمل، أو إذا ما سيطر عليك القنوط والمزاج السوداوي، فتذكر «التعليمات الخاصة للشوائين على قارعة الطريق»،

التي وضعنـاها. اعثر عليها واقرأها. وانني لعلى ثقة أنك سوف تقهقه حتى تستلقي على قفاك، ولن يبقى لهمومك أي أثر.

أما بالنسبة لي فبعد مشاركتي في خمس ـ ست لجان أخرى لوضع التعليمات، عدت إلى أمـريكـا، لكنني لم أتمكن من العثور على عمل باختصـاصي السابق. فخلال تلك السنوات، التي أمضيتها في وضع الـتعليمات، قطع علم البصريات والتكنيك شوطـاً بعيداً، ولم يعـد بالامكـان العثور على عمل بمعارفي السابقة. ولما كنت قد بلغت من العمر عتياً، وكنت أفتقر إلى الوقت والمال لاعادة تحصيلي، فقد عدت إلى الوطن. وللأسف أنني وجدت أن مستشار البلدية قد تغير. وهكذا لم أتمكن من الحصول على وظيفة في البلدية.

ولكي أقوم بأود أسرتي الكبيرة فتحت كشكاً صغيراً على ناصية الشارع. وفيه أقوم باصلاح النظارات والمناظير والقداحات والأقلام والمظلات.

إن حياتي، التي أعيش، ليست بالفقـيرة عمـوماً. لكن الأمور عندنا في تركيا دائماً هكذا: الإنسان العارف، ذو الخبرة الفنية، وحتى الموهوب، والذي هو في ذروة عطائه ـ مثل هذا الإنسان لا يستخدمونه حسب اختصاصه مباشرة...

لماذا لم يعودوا يدعونني إلى لجان وضع التعليمات؟!

سو هادا؟

هل سبق لكم أن رأيتم كيف يحصل الجنون؟ أنا رأيت ذلك.

أوه، كان إنسانـاً، ذا أعصاب قوية بشكل غير عادي، متعلماً ومثقفاً. وقد جن المسكين أمام عيني.

حدث ذلك منذ عامين فقد جرني زميلي أنا وزوجتي إلى حفل عشاء لدى أناس أرادوا أن يتعرفوا علي. لم أستطع الصمود في وجه إلحاحه. وهكذا وجدنا أنفسنا ضيوفاً.

لست أحب التعارف على هذا النحو. فما إن أجد نفسي لأول مرة بين أناس لا أعرفهم حتى أشعر بالحرج. وعادة ما تهب مني برودة جليدية على كل من يحيط بي. إن البيت الذي أدخله يتحول فوراً إلى ما يشبه الثلاجة.

اتضح أن الناس، الذين دعوننا، لطفاء بشكل نادر. وقد بذلوا قصارى جهدهم من أجل إرضائنا.

وفي اثرنا جاء ضيوف آخرون: سيدتان ورجلان. دعتنا ربة البيت المضيافة إلى الشرب على العشاء.

بدد القادمون الجدد إلى حد ما جو غرفة الضيوف البارد. لكنهم لم يلبثوا أن شعروا بدورهم بتأثير الأشعة الجليدية الصادرة مني، فلاذوا بالصمت. كان الجميع جالسين مغلولين منتفخين. وقد عمد أصحاب البيت أكثر من مرة إلى إلقاء هذا الموضوع، أو ذاك لنا، عَلّ الحديث المشترك يذيب جو الاغتراب، لكننا كنا، بعد أن نتحدث قليلاً، نعود فنلوذ بالصمت، وتسود غرفة الضيوف فترات الصمت الحرجة، والتي يقال فيها «لقد مر الشيطان».

وبين الفينة والأخرى كان يتناهى من الغرفة المجاورة صوت طفل رنان. وراح صاحبا البيت يشكوان من ولدهما. فهو ـ عافاه الله ـ ولد لعوب. فخلال وقت قصير تبدلت أربع مربيات، ولم تستطع أكثرهن صموداً أن تتحمل سوى ستة أشهر وها هو الصبي الآن في الغرفة المجاورة يعذب بونًا[1] المسكينة. كان والداه قد أرهقتهما الحيوية المفرطة لقرة عينهما المحبوب.

وحين نضب هذا الموضوع اكتأبنا من جديد. وقال صاحب البيت:

ـ انتظروا، سيأتي فكري بيه ويسلينا، لسوف نضحك حتى نستلقي على قفانا.

ولمعت عينا إحدى السيدات فرحاً:

ـ ماذا أسمع؟ سيأتي فكري بيه؟

ـ نعم، إننا بانتظاره.

(١) bonne ـ كلمة فرنسية تعني مربية. /المترجم.

ـ آخ يا للروعة. لسوف نشعر بالمرح حالاً. وروت السيدة الثانية:
ـ ذات مساء حللنا ضيوفاً على معارفنا. وكان فكري بيه حاضراً. وقد أضحكنا وأضحكنا حتى أننا رحنا نتدحرج على الأرض من شدة الضحك. وراح الجميع يتوسل: «كفاية يا فكري بيه... ارحمنا... وإلا انفجرنا من الضحك». حتى ان إحدى السيدات ـ اعذروني على صراخي ـ راحت تقهقه لدرجة أنها تركت على الكرسي بركة صغيرة.

وبدأ الجميع يتحدثون عن فكري بيه: «آخ يا له من فكه!... لكم هو مرح...».

وسألوني:

ـ هل تعرفه؟

ـ كلا ـ أجبت:

ـ أوه ـ خسارة. تعرف عليه، وستبتهج جداً.

بعد قليل جاء ضيوف آخرون ـ رجال ونساء. ومن ثم جاء شخص آخر ـ موظف بريد. أصبح عددنا سبعة عشر شخصاً. وكان الجميع يتبارون في إطراء فكري بيه، ويمتدحون قدرته على إصابة الجميع بعدوى المرح غير العادي.

كان صوت الولد الشقي ـ عافاه الله ـ لايزال يتناهى من الغرفة المجاورة.

فتح الباب، وصفق الجميع بأيديهم.

ـ فكري بيه...

ـ فكري بيه...

كان البدين الداخل شخصاً ترتاح إليه النفس فعلاً. حيث

تراودك رغبـة في الدنو منه والطبطبة على خديه المكتنزين. كان منظره يوحي أنه في حوالي الخامسة والأربعين من العمر.

إن لدي شعوراً مسبقاً ضد أولئك الناس الذين يرفعهم الجميع إلى السـماء، لكن هذا نال إعجـابي فوراً. فما إن دخل حتى تلاشت غربتنا، وأحس الجميع بالخفة والسرور. كانت كل كلمة من كلماته تثير عاصفة من الضحك.

جربت أن أقاوم مجرى المرح المتدفق من هذا الإنسان. لكنني ذبت بدوري. فابتسمت، ثم لم يلبث فمي أن امتد حتى أذني، ورحت أقهقه.

لم يكن كثير الجلبة، ولم يكن ثقيل الظل، وكان ذلك الأروع فيه.

رحت أراقبه باهتمام أكثر. بأي طريقة كان يستطيع إجبرنا على الضحك؟

كلا لم يكن يبهرك بفطنته. كان يتحدث ببساطة. لكن كل جملة من جمله كانت تثير الضحك.

سألت صاحبي، الذي جاء برفقتنا:

ـ من يكون فكري بيه هذا؟ وما هو عمله؟

فأجاب صاحبي:

إن فكـري بيه مرب. لقد عاش أربع سنوات في سويسرا، حيث درس مسائل تربية الأطفال. ومن ثم عمل ست سنوات في أمريكا، في جمعية «تـربية الطفل». وباختصار فان فكري بيه اختصاصي في مجال تربية الأطفال. وحول هذا الموضوع يلقي المحاضرات بواسطة المذياع. إن لديه الكثـير من الأبحاث باللغات التركية والانكليزية والفرنسية،

ويكتب المقالات العلمية للصحف والمجلات.

ازداد اهتمامي بفكري بيه أكثر. فلم يسبق لي أن صادفت في حياتي مثيلاً له. يقول: «طاولة...» فنقهقه، يقول: «باب...» فنقهقه. كان المرح يسود جو غرفة الضيوف. ومن شدة الضحك راحت الدموع تطفر من أعيننا.

ـ آخ لقد أمتنا من الضحك يا فكري بيه، اسكت.

ها ـ ها ـ ها.

ـ أتوسل إليك يا فكري بيه كفاية هاـ ها ـ ها ـ...

البعض أمسك ببطنه، والبعض تقوس جد التقوس، والبعض الآخر وقع على السجادة.

ـ هي ـ هي ـ هي.

ـ ها ـ ها ـ ها...

ـ هو ـ هو ـ هو...

كنت مذهولاً. شيء لا يصدق. شيء غريب...

لكن أكثر ما أثار ذهولي هو وجه فكري بيه، الذي كان خالياً حتى من ظل الابتسام.

ـ من أين لك كل هذا المرح يا أفندي؟ أين السر في ذلك؟ هلا علمتنا نحن...

وأجاب فكري بيه:

ـ السر في غاية البساطة. عليكم أن لا تغضبوا. أبداً. عمري ثمانية وأربعون عاماً، وحتى هذا اليوم لم أغضب.

ـ غريب. هل يعقل أنك لا تغضب أبداً؟

ـ لا أغضب.
ـ وإذا ما أهنت؟
ـ سيان. في المدرسة كنت قادراً على إثارة حنق الجميع، أما أنا فلم يستطع أحد إثارة غضبي. صب علي من الشتائم أقذعها، فلن أغضب. بل سوف أبتسم وكأن شيئاً لم يكن. سوف أعتبر ذلك ناجماً عن قلة تهذيبك.

ثم بدأنا الحديث عن تربية الأطفال. ولما كنت أباً فقد كان من البدهي أن بدأت أشكو من أولادي.

ـ أتصور يا فكري بيه كيف تربي أولادك. . .
ـ للأسف. . .
ـ كيف؟ وطريقتك التربوية؟. . .
ـ ليس عندي أولاد.
ـ آ ـ آ ـ آ. . . زوجتك عاقر؟
ـ لست متزوجاً.
ـ ولم يسبق لك أن تزوجت؟
ـ أبداً.

وللحال أصابني الفتور. فماذا يمكن أن يفهم في الأطفال وفي تربية الأطفال من ليس متزوجاً، ولا أولاد لديه؟ أوه كم من السهل وعظ الآخرين: «يجب أن يربى الطفل كيت وكيت. . .».

حتى أنني ـ أقول بصراحة ـ غضبت.

عاد فكري بيه يضحكنا من جديد. لكنني لم أعد أستطيع الضحك، فقد تعكر مزاجي.

بيد أن حزني لم يستمر طويلاً. أنا نفسي لم أنتبه كيف عدت إلى القهقهة.

وطيلة هذا الوقت ظل يتناهى من الغرفة المجاورة، ودون انقطاع

ـ صراخ الطفل الشقي.

وسأل فكري بيه.

ـ ماذا هناك؟

وأوضحوا له: الولد يتشيطن، ولا قدرة للمربيات عليه.

ـ إي ـ إي ـ إي. هذا لا يجوز ـ أعلن فكري بيه ـ على الأولاد في هذا الـوقت أن يكـونـوا نائمـين. وان لم ترقدوهم في فراشهم فانهم سوف يجلسون مع الكبار.

ألقى فكري بيه محاضرة مطولة حول هذا الموضوع، ثم أوعز:

ـ هاتوا الطفل.

ولوحت ربة البيت بيديها.

ـ أوه يا فكري بيه. إنك لا تعرف مشاكسنا! فهو سيجعلك تحتدم غيظاً.

لكن فكري بيه برهن بالحجج العلمية خطأ هذه الكلمات.

ـ لا يجوز ترك الطفل وشأنه، يجب أن يكون مشغولاً دائماً. هاتوا الصغير.

وتدخل الأب:

ـ أنت لا تعرفه بعد... سيفسد الشيطان أمسيتنا كلها.

ـ كلا، هاتوه، هاتوه، أصر فكري بيه.

وقالت الأم:

ـ كما تريد. لكن ذنبك على جنبك.

جيء بالطفل.

كان كربوجاً، في حوالي الرابعة، يمور حركة، عيناه لا تكفان عن التنقيب في كل الجهات. في البداية استوحش، وهو يرى مثل هذا الحشد الكبير من الكبار.

ونصح فكري بيه:

ـ دعوا الطفل وشأنه. لا تولوه أي اهتمام.

وبعد أن أخرج من علبة السجائر ورقة شبه شفافة، تفصل بين صفي السجائر، صنع فكري بيه منها سفينة صغيرة جداً، ومد يده بها للصغير. وقد انتعش هذا فوراً، وسأل:

ـ سو هادا؟

ـ سفينة ـ رد فكري بيه.

وسأل الطفل من جديد:

ـ سو هادا؟

ـ سفينة، سفينة، شايف.

وقال والد الطفل:

ـ الآن راحت عليك يا فكري بيه! فلسوف يبقى حتى الصباح يلح عليك: «سو هادا، سو هادا»، سوف يريك نجوم النهار.

ـ كل الأطفال هكذا في هذه السن ـ قال فكري بيه موضحاً ـ لا يكفون يسألون. إنها المرحلة، التي تقام فيها علاقاتهم بالعالم المحيط. وكلما أكثر الطفل من الأسئلة كان إدراكه أفضل. اطمئنوا. يجب الرد على أسئلته بصبر وهدوء. فتربية الأطفال ليست بالأمر السهل. من الضروري أن يتحلى المرء هنا بالصبر والجلد. ويجب أن ترد على كل سؤال بشكل جدي

ودقة لكأن أمامك إنساناً راشداً.
ـ طيب، طيب، سوف نرى ـ قال صاحب البيت.
ـ سو هادا ـ سأل الصغير.
ـ سفينة ـ كرر فكري بيه ـ إنها تسير في البحر، هكذا: فيش، فيش، فيش...

إن لدي أربعة أولاد، ولذا فقد رحت أراقب باهتمام هذه التجربة التربوية، التي كانت تجري أمام ناظري.

صنع فكري بيه من الورقة ذئبياً، إنساناً، سيارة. وللحال أولاه الطفل كل ثقته.

حتى أنني اضطررت لأن أعترف:
ـ تلك فائدة العلوم. انظروا كيف انسجما بهذه السرعة.
ـ لا تهتموا بنا ـ طلب فكري بيه ـ تابعوا حديثكم.

رحنا نتحدث مع بعضنا، لكن كل اهتمامنا كان منصباً عليهما.
ـ سو هادا؟
ـ ذئيب.
ـ سو هادا؟
ـ هذه؟... ساعة.

وغرز الصغير إصبعه في زنبرك ساعة فكري بيه:
ـ سو هادا؟
ـ ساعة.
ـ لا، لا، سو هادا؟
ـ هذا؟... إنه... الشيء الذي يدور الساعة. زنبرك

وأشار الصغير إلى السماور.

ـ سو هادا؟

ـ هذا سماور.

ـ سو هادا؟

ـ سماور. فيه يغلى الماء لصنع الشاي.

ـ لا، لا، سو هادا؟

ـ حنفية السماور.

ـ سو هادا؟

ـ هذا؟ إنه... إحدى قطع السماور...

وأوضح فكري بيه لنا:

ـ على هذا النحو يجب الرد على كل سؤال يوجهه الطفل.

وأشار الصبي إلى النصف العلوي المكتنز لإحدى السيدات:

ـ سو هادا؟

ـ هذا؟... هم... ديكولتيه.

ـ لا، لا، سو هادا؟

ـ صدر.

وأشار الصبي إلى غطاء السماور.

ـ سو هادا؟

ـ سماور.

ـ لا، سو هادا؟

ـ إنه سماور يا بني.

ـ لا، لا، سو هادا؟

ـ إنه سماور، أقول لك.
ـ سو هادا؟
ـ الله، الله... قطعة من السماور...
والتفت فكري بيه ناحيتنا:
ـ لا يجوز الغضب بأي حال من الأحوال. إن التربية الصحيحة ترفض الغضب.
ـ سو هادا؟
ـ هذه؟... ساق.
وأشار الصبي إلى فخذ إحدى السيدات.
ـ لا، لا، سو هادا؟
ـ طرف الثوب.
ـ سو هادا؟
ـ بطة الساق.
ـ سو هادا؟
ـ بطة الساق يا بني، بطة الساق. إنها جزء من الساق، يطلق عليه اسم بطة الساق.
ـ سو هادا؟
اصطبغ وجه فكري بيه بالدم، فأصبح للحال أحمر قانياً.
ـ بطة الساق، بطة الساق، بطة الساق... لكنه تمالك نفسه فوراً ـ لا يجوز الغضب. الصبر والصبر وحده. لا يصح الغضب بأي حال من الأحوال.
ـ سو هادا؟

ـ ساعة.

ـ سو هادا، هادا؟

ـ ساعة يا بني، ساعة.

ـ سو هادا؟

ـ زنبرك الساعة.

ـ سو هادا؟

ـ قطعة للسماور.

ـ سو هادا؟

ـ طيب، هيا العب بالسفينة قليلاً.

ـ سو هادا؟

ـ بطة الساق.

ـ لا، لا، سو هادا؟

ـ ديكولتيه.

ـ سو هادا؟

ـ صدر.

دس فكري بيه الألعاب الورقية، اليدوية الصنع، في يدي الطفل، ثم انتقل للجلوس في كرسي آخر، لكن الطفل جرى نحوه فوراً، وسأل، وهو يشير بيده إلى الأنف الطويل لأحد الضيوف:

ـ سو هادا؟

ـ هذا؟ إنه أنف.

ـ سو هادا؟

ـ أنف. أ ـ نف... أ ـ نف ـ ف... هل فهمت.

أنف؟

ـ سو هادا؟

ـ أقول لك أنه أنف يا بني. أنف يا صغيري. أنف.

ـ لا، لا، سو هادا؟

ـ لقد سبق، وقلت لك يا صغيري أنها بطة ساق. هذا الجزء من الساق يسمى بطة الساق. بطة الساق. بطة الساق، هل فهمت؟

ـ سو هادا؟

ـ وهذا أنف.

ـ سو هادا؟

ـ أنف.

وراح الطفل يشير إلى الأنف باستمرار:

ـ سو هادا؟

ـ أنف، أنف، أنف...

وقال فكري بيه لنا:

ـ التعصيب غير وارد. ولا بأي حال من الأحوال. تابعوا الشرح إلى أن يفهم الطفل. عشر مرات، مئة، ألف مرة. المهم أن يتقن الطفل.

وقد بدا وكأن الصغير أدرك جيداً مغزى هذه الكلمات. فراح يشير إلى الأنف بإصرار:

ـ سو هادا؟

ـ أنف. أـ نف ـ ف... أ ـ نف... أ ـ نف...

ـ سو هادا؟

ـ إنه أنف... أنف وخلاص... أنف عادي!

ـ سو هادا؟

ـ أنف، أنف، أنف، أ ـ ن ـ ف. . .

ـ سو هادا؟

ـ أنف، أنف، أنف، أ ـ نف ـ ف. . .

كان ذقن وحاجبا فكري بيه ترتعش بشكل غريب.

ـ سو هادا؟

رأيت أن أعصاب فكري بيه قد توترت جداً. وبعد أن خفض صوته، قال بحنان متكلف متوسلاً:

ـ أنف. أنف يا صغيري. أنف يا عزيزي، أنف. . .

ـ سو هادا؟

ـ أنف يا كربوج، أنف، أنف.

ـ سو هادا؟

ـ أ ـ نف. . . طيب قل: أنف.

ـ سو هادا؟

دس فكري بيه أصابعه وراء ياقته، وبنترة أرخى ربطة عنقه.

ـ أنف، أنف يا ولدي. إن ما تراه في وجه عمك هو أنف.

ـ سو هادا؟

خلع فكري بيه السترة.

ـ أنف.

ـ سو هادا؟

ـ لقد سبق، وقلت لك أنف. . . أنف، هل تسمع؟. .

ـ سو هادا؟

ـ آ ـ آ ـ آ، خلاص. إنه أنف.

ـ سو هادا؟

ـ أنف يقال لك. آخ منك... ـ لكنه تمالك نفسه في الوقت المناسب ـ لا يجوز معاملة الطفل بفظاظة. هل فهمتم؟ ولا بأي حال من الأحوال.

ـ سو هادا؟

فمط قائلاً بلطف:

ـ أ ـ نـ ـ فـ ـ فـ ـ ف...

ـ سو هادا؟

ـ أوه ـ وه ـ وه.

ـ سو هادا؟

ـ أوخ ـ خ ـ ح. لكن فكري بيه ضبط أعصابه فوراً ـ يجب التحلي بالصبر في التعامل مع الطفل. لا يجوز أن نغضب. الصبر ـ بالدرجة الأولى. يجب الرد على كل سؤال يذرحه.

ـ سو هادا؟

ـ هذا؟ إنه... ما اسمه... حذاء.

ـ لا، لا، سو هادا؟

ـ سحاب.

ـ هادا، هادا، سو هادا؟

ـ هذا زر السحاب.

ـ سو هادا؟

ـ ساق.

ـ سو هادا؟

ـ فخذ، فخذ عمتو. . .

أصبح لون فكري بيه قرمزياً. وأز نفسه. وغير كرسيه من جديد. لكن الطفل لم يتركه لحظة.

ـ سو هادا؟

ـ ساق.

ـ لا، لا، سو هادا؟

ـ عقرب الساعة. . . أوخ ـ خ. خلاص. . .

ـ سو هادا؟

ـ تباً لك من غبي. . . قلت لك أنف. . .

وفجأة وثب هذا الرجل اللبق، المتزن من مقعده، وراح ينتف شعر رأسه.

ـ سو هادا؟ ـ سأل الصغير.

وهنا حدث الشيء الأكثر غرابة. فقد انطلق فكري بيه يجري في الغرفة، وهو يصرخ:

ـ سو هادا؟ سو هادا؟

وراح يتبارى مع الصغير، كل منهما يسأل الآخر:

ـ سو هادا؟

ـ سو هادا؟

قرر الصغير أن العم يلعب معه لعبة جديدة، فراح يضحك بمرح، ثم يسأل:

ـ سو هادا؟

ـ مغفل، عبيط ـ صاح فكري بيه ـ هل فهمت الآن؟ ثم سأل بدوره:

ـ سو هادا؟

وعلى حين غرة قال الصغير، الذي لم يقل حتى الآن شيئاً عدا «سو هادا؟»:

ـ مغفل، عبيط.

خيم صمت القبور على غرفة الضيوف. وعلى جناح السرعة أخذوا الصغير بعيداً.

ظل فكري بيه يسعى في الغرفة، وهو يتمتم:

ـ سو هادا؟ . . . سو هادا؟

شكرنا أصحاب البيت ثم ودعنا بعضنا، وانصرفنا.

وفيما بعد عرفنا أن فكري بيه جن فعلاً. فقد ظل المسكين عدة أشهر يكرر كما الببغاء: «سو هادا؟ سو هادا؟». ومن ثم تعافى، وسافر إلى أمريكا، وهو الآن يدرّس علم التربية في إحدى الجامعات هناك.

انتهى

دار الحصاد للنشر والتوزيع

دمشق ص. ب: ٤٤٩٠

هاتف: ٢٤٦٣٢٦

